الجمهورية العربية المتحدة
وزارة التربية والتعليم

حمزة العرب

عباس خضر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

عاش أدبنا الشعبي قرونا من الزمان منعزلا عن أدب الخاصة المتداول في المعاهد والمدارس وفي الحياة الأدبية التي تتسم بالثقافة والدراسة ، أو الأدب الرسمي كما يسميه بعض الدارسين الآن . وكان ينظر اليه باستهانة وازدراء ، لعدة أسباب، منها تعالي الخاصةِ والقلةِ المتعامة على سواد الشعب الذي يتداوله والذي كان يعد في نظرهم كما مهملا لا قيمة لما يصدر عنه وما يشتغل به ، ومن هذه الأسبابِ اشتمال القصص على خيال خرافي لم يكن يعترف به في تراثنا الأدبي ، وكذلك مافي أسلوبها من ركاكة وعامية لا يسيغهما الذوقُ المطبوع على الجزالة والتفاصح .

لم يكن أحد من مثقفينا ، حتى في أوائل النهضة الحديثة ، يلتفت إلى ما في أدب الشعب العربي من ذخائرَ قصصيةٍ تقوم دليلا على عراقة الفن القصصي في بلادنا ، برغم الإهمال ، بل الاضطهاد ، الذي لقيه من الأدباء والمؤلفين الخواص أو الرسميين ، وقد بدأ الاهتمام بدراسة بعض جوانبه بعد أن التفت اليه الأوربيون وترجموا قصص « ألف ليلة وليلة » إلى لغاتهم وما كان لهذه القصص من تأثير في الأدب الغربي .

وليس من غرضى الآن أن أكتب دراسة لهذه الناحية التى وفاها الأستاذ فاروق خورشيد فى كتابة « الرواية العربية » ، وكتابه المشترك مع الدكتور محمود ذهنى « فن كتابة السير الشعبية » إنما أريد أن أشارك فى حركة البعث التى بدت طلائعها ، نتيجة لشعور شعبنا بذاته وبحثه عن مقوماته الأصيلة وجذور فنونه وآدابه ، بعثِ التراث الشعبى الذى أودعه أجدادنا مشاعرهم وأحلامهم وبثوا فيه عطر الفن الذى هدتهم إليه فطرتهم السليمة الصادقة .

وذلك بتقديم عمل أدبى يعتبر قمة فى أدبنا الشعبى ، وهو قصة حمزة العرب أو « حمزة البهلوان » المارد العربى القديم الذى خرج من قلب بلاد العرب وراح يحطم أغلالَ الظلم والاستعباد ويشيع العدل والخير فى أرجاء العالم الذى وصل إليه خيال قصاصينا السابقين .

وهذه القصة ، قصةُ حمزة البهلوان ، هى فيما أعلم أكمل عمل فنى فى أدبنا الشعبى ، بل أستطيع أن أقول إنها رواية متكاملة . وأن فن السير الشعبية العربية كسيرة عنترة وسيرة سيف بن ذى يزن وغيرهما قد تطور فى هذه القصة ، وأصبح بها رواية لها خصائص الفن الروائى العالمى . ونستطيع الآن أن نقول بأن هذا الفنَّ لم ينشأ فى أوربا فقط ، فان رواية حمزة البهلوان كتبت منذ أكثر من ثلثمائة سنة ، أى أنها أسبق من أول رواية أوربية معروفة وهى « دون كيخوتة » لسرفانتس الأسبانى . ولا يضيرها أنها مجهولة المؤلف على خلاف دون كيخوتة ، مما يسلكها فى عداد « الفولكلور » .

ومن مظاهر تطورِ الفن الروائى الغربى فى هذه القصة أن أبطالها الرئيسيين

كلهم خياليون ، فليس حمزة مثلا شخصية معروفة فى التاريخ مثل عنترة وسيف بن ذى يزن والظاهر بيبرس .

ولو أن أدبنا الشعبىَّ أخذ اعتباره منذ ذلك الحين ، ولم ينقطع تطوره بالتعالى عليه من قِبَل الخاصة أولا ثم بالانبهار بحضارة الغرب وآدابه ثانيا ، لصار لنا فن قصصى متطور من هذه الجذور له سماتهُ الخاصة وإن كان يلتقى فى النهاية ، وبحكم الاتصال ، بالأصول الفنية العالمية .

لم تكتب هذه الرواية لمجرد التسلية وتلهية الناس ، كما زعم بعض القدماء ومن تابعهم من المحدثين . وإنما هى — إلى ما فيها من إمتاع وتشويق — ترمى إلى موضوع قومى وإنسانى فى وقت واحد . هو أولا الدفاع عن العرب ومقاومة الشعوبية ، وثانيا الدفاع عن الفضائل والقيم الإنسانية التى يتصف بها العرب ، ويرمز إليها الإيمان بالله ، ومكافحة الشر والطغيان والرذائل التى ترمز إليها عبادة النار . وعلى ذلك كله يدور الصراع الدرامى فى القصة .

والعنصر الخرافى فيها ، الذى يتمثل فى الجن ليس مقصوداً لمجرد التسلية وليس أساطير تفسر مظاهرَ كونيةً ، بل هو مستخدم فى خدمة الغرض العام كسلاح لتغلب الخير على الشر حين يعجز السلاح الواقعى عن أداء رسالته .

ومن الظواهر الإنسانية فى الرواية أنها — وهى ترمى إلى إعلاء شأن العرب — لم تسخر ولم تنتقص من شأن الشعوب الأخرى ، بل وجهت الاهتمام إلى مقاومة الحكام والأفراد المتعجرفين الذى يستهينون بالعرب ويعتبرونهم

همجا لا يصلون إلى مستوى أبهتهم وفخارهم ... وانتهت القصة بالمصالحة والمصاهرة بين العرب والفرس .

وبمنتهى اللباقة وسعة الأفق تجنبت القصة التفريق بين الأديان السماوية واتخذت الإيمان بالله إطاراً عاماً لفكرة الخير العام ورمزاً لدور الأبطال الإيجابيين المحبوبين فيها .

أما دورى فى هذه الرواية فهو كتابتها والتصرف فى صياغتها وبعض مضامينها بحيث تخرج فى صورة تلائم ذوق العصر . والمعروف فى الأعمال الفولكلورية أنها لا تثبت على صورة واحدة ، بل يتصرف فيها ويضيف اليها كل من يحكيها أو ينشدها أو من يتناولها أى تناول آخر ، وما عملى هذا إلا مرحلة تطويرية من هذا القبيل . وأرجو أن تكون بعد ذلك هى وأمثالها من آدابنا وفنوننا الشعبية مصدر إلهام لأعمال أدبية وفنية جديدة .

القاهرة فى أول مايو سنة ١٩٦٤ عباس خضر

الفصل الأول

استيقظ « كسرى أنو شروان » من نومه خائفا ، وظل أكثرَ من ساعتين يعانى القلق ، لأنه رأى فى منامه حلما فظيعا أقلق بالهَ وأزعجه . ثم عاد إلى النوم ثانية فما لبث أن رأى نفسَ الحلم وشاهد ما شاهده أولا ، فاستيقظ ثانيا وهو على حالة من الاضطراب أشد من الأولى ولم يستطع النوم ، فبقى ساهرا ينتظر قدومَ الصباح ليخرج إلى إيوانه ويتخلصَ من أوهام ذلك الحلِم المزعج ، وليستدعىَ وزيرَهُ « بزرجمهر » فيقص عليه ما رأى . فليس هُناكَ من هو أقدرُ على تفسير هذا الحلِم من « بزرجمهر » الحكيم الواسع المعرفة المطلع على ظواهر الأمور وخفاياها والملم بمختلف لغات العالم .

فلما أقبل الصباح وأشرقت شمسه لبس الملك ثيابَه وخرج بموكبه إلى الإيوان يسير بين يديه ألفٌ من الفرسان الأشداء ، ويمشى وراءه ألفٌ غيرهم . وجلس على سرير المُلْكِ المصنوع من الذهب الخالص وحوله كراسى كثيرة مصنوعة كذلك من الذهب ومعدَّةٌ لوزرائه ورجال دولته .

أقبلت الحاشية والبطانة من أهل المناصب والمراتب فى دولة الفرس العظيمة ، ودخلوا إلى مجلس الملك واحدا بعد واحد ، وكان كل منهم عندما يصل أمام الملك يسجد ويرجع إلى كرسيه . ولمْ يخْفَ عليهم مايبدو على الملك من الهم والكآبة ، ولكن لم يجسرْ أحد منهم أن يتكلم أو يسأل الملك عن حاله، إلى أن

وصل الوزير « بختك بن قرقيش » فسجد ثم أخذ مجلسه إلى جانب كسرى وحياه بتحية المجوس وعبدةِ النار قائلا :

— حَيَّتْكَ النارُ يامولاى وخَدَمَتْكَ السعادةُ .

— وحيتك النار يابختك .

— لتأذنْ لى ياسيدنا الملك أن أسأل عن حالك وعن سبب الكدر الذى نراه يعلو وجهك مع أن البلاد فى أمان واطمئنان ، وكل الملوك تهابُك وتخشى بأسَكَ ، ومامن أحد من العمال والولاة والمجاورين لدولتنا خرج علينا أو اعتدى على حدودنا ، وصحتك يا سيدى الملك — كما أراها — تبدو جيدة .

— اعلم أيها الوزيرُ أنى رأيت حلماً كدَّرَنِى وأقلقنى وبقيت معه حتى هذه الساعة مضطرباً لا أشعر براحة ، وإنى أحب أن أستفسر من وزيرى « بزرجمهر » عن هذا الحلم .

قال بختك :

— إن شاء سيدى الملكُ أخبَرَنِى بهذا الحلم وأطْلَعَنِى عليه .

كان كسرى يعلم أن وزيرَه « بختك بن قرقيش » لن يفيدَهُ شيئا فى تفسير الحلم لأنه لمْ يُؤْتَ مثلَ ما أوتى « بزرجمهر » من العلم والمعرفة ، ولكنه شعر برغبة فى أن يُنفّسَ عن صدره ويقصَّ للحاضرين مارآه فى نومه ، قال :

— رأيت نفسى جالسا على سريرى هذا فى إيوانى هذا منفرداً لا أحدَ يجلس معى ، أشعرُ بجوع شديد وشوق عظيم إلى الطعام . ثم قدِّمَتْ إلىَّ



مائدةٌ من الذهب عليها صحنٌ من العاج منقوشٌ بالنقوش الفارسية ، وبداخل الصحن المذكور وزةٌ كبيرةٌ محمَّرَةً بالسمن ، تنبعث منها رائحةٌ شهيةٌ تاقت إليها نفسى كلَّ التوق ، وحرَّكنى جوعى إلى أن أتناولَ من تلك الوزة وأشبعَ جوعى . وإذا بكلب هائلِ المنظر قصيرِ القوائم كبير الرأس يغطى جسمَه وبَرٌ كثيفٌ هجم علىَّ ونبح فى وجهى ، وكشَّر عنْ أنيابه ، فجفلتُ منه ورجعت إلى الوراء ، فتقدم من الوزة وأخذها بفمه وأراد الخروجَ من الإيوان وأنا أتحرَّقُ وأتململ والجوعُ يأخذ بى ويزيدنى ضعفا ، ولا أقدر على استخلاص طعامى من فم الكلب . ثم رأيت أسداً عظيما قد دخل من الباب قبل أن يخرج الكلب ، وحالما وصل إليه ضربه بيده فألقاه ميتا وتناول الوزةَ من فمه وأعادها إلىَّ دون أن يلحق بها أى مكروه . استيقظت من نومى مضطربا لا أعرف القصدَ من هذا المنام . . . ولا بُدّ له من سبب .

— لا يرهب سيدى من هذا المنام ، فما هو إلا من قبيل الأوهام وهو يحدث كثيرا للأنام ، ومن المعلوم أن المرء يرى على الدوام مثلَ هذه الأحلام ، وهى تحدث غالبا من الطعام ، وقد تكونُ من أسباب أخرى ولكنها على كل حال لا تكون ذات نتيجةٍ ولا تدل على شىء يوجب اضطرابَ سيدى الملك وتكدره .

— كيف لا وقد رأيت الحلم مرتين بنفس المعنى والحالة ، ولو لم يكن له دليل مخيف لما تكرر ولما كنت أشعر فى نفسى بهذا الكدر الذى أريد أن أتخلص منه فلا أستطيع . وإنى أعرفُ جيداً أن هذا الحلمَ لا يعبره ولا يفك عقدَته

إلا « بزرجمهر » فهو خبير بعلوم العالم وتفسير ما غمض من الأشياء ، وأما أنت فلا معرفةَ لك بمثل هذا الأمر .

ولم يتم الملكُ كلامه حتى دخل الوزير بزرجمهر فوقف له الحاضرون احتراما ، وتلقاه كسرى بالترحيب وكأن هماً سقط عن قلبه بقدومه وما إن أخذ بزرجمهر مجلسَه حتى بادره كسرى قائلا :

— أنت تعلم أيها الوزيرُ العاقل الحكيم أنى اصطفيْتكَ واتخذتك مُدَبِّراً لجميع أحوالى وفوضت إليك الرأىَ الأول وأطلقت لك الحريةَ فى أمر العباد ، وما ذلك إلا لثقتى بك واعتقادى أنك صادق لا تُخْفِى عنى شيئا ولا ترضَى إلا ما به صالحى وصالح بلادى ومملكتى .

قال الوزير بزرجمهر :

— ما أنا إلا عبدٌ مشمولٌ بنعمتكم وإكرامكم ، وإنى مازلت على الأمانة لدولتكم والوفاء لكم . وهأنذا أنتظر ما تأمرون به .

— رأيت فى الليلة الماضية حلما هائلا راعنى جداً ، وألقانى فى اضطراب عظيم ولا راحةَ لى إلا إذا فسرتهُ تفسيرا واضحا وأخبرتنى بما يكون منه .

وقصَّ كسرى أنوشروان على وزيره بُزُرْجُمُهْر ما رآه فى المنام بتفاصيله ، ووعده أن يكون راضياً عنه مهما كان تأويلُ الحلم ومهما كانت عاقبتهُ ، حتى يمكن التدبيرُ لما عسى أن يكون من قحط أو حروب أو ما شاكل ذلك .

أطرق بزرجمهر وجعل يفكر برهة وهو يسأل الله توضيحَ الحقيقة وإظهارَ الخفايا ، فقد كان بزرجمهر مؤمنا بالله ، على خلاف دين المجوسية السائد فى دولة

الفرس. ولما تبينتْ له مرامى الحلم وعرف بتوفيق الله ما سيحدث للبلاد رفع رأسه وقال :

— إعلم يامولاى أن الله سبحانه وتعالى — وهو الإلهُ الذى أعبده — أراد أن يُظهرَ لكم ما سيقعُ لدولتكم قبل أن يحدث بسنين ، فالمائدة التى رأيتَها قدمت إليك من الذهب الوهاج هى مدينتُك وعاصمة ملكِك هذه « المدائن » التى نحن بها ، والصحن والوزة هما خزانتك والسرير الذى تجلس عليه الآن .

وسكت بزرجمهر قليلا ، فقال الملك ملهوفا :

— وما الكلب الذى هجم على الوزة . . ؟

— فارسٌ يظهر فى حصن خيبر ، يطرق هذه البلادَ بجيشه فيدوخها ويحاصر هذه المدينةَ ويمتلكها ، ويملك الكرسى ويطرُدك من بلادك .

زام الحاضرون فى همهمة . . وأسرع الملك وهو يرفع صوته ليخفىَ جزعه :

— وما الأسد ؟ قل لى بحق النار . . ولا تُخفِ عنى شيئاً :

— إنه فارس عربى يظهر فى بلاد الحِجاز ، عظيمُ القدر والشأن ، يأتى من برية الحجاز ، ليستخلص لك ملكَك ويرجعَك إلى سريرك ، ويقتلَ عدوك .

ولم يقل بزرجمهر لكسرى كل الحقيقة ، فقد تراءى له أن دولة الأكاسرة قد بلغت شيخوخةَ الحياة وأن الفارس العربى الذى يظهر فى الحجاز سيرفع نير الفرس عن العرب ، ويحرر مملكةَ النعمان من الخضوع له ، ويهدم معابدَ النيران ، وينشر دينَ الله بين عبدةِ الأوثان .

لما سمع الملك كسرى من وزيره ذلك الكلامَ وقع فى نفسه موقعَ التصديق، ولم يستغرب وقوعَ ما تنبأ به بزرجمهر ، فقال له :

— هل يمكنك أن تعرف أيها الوزيرُ العاقل إن كان الفارس العربى الذى أشرت إليه قد ظهر ووُجدَ فى الحجاز ، أو لم يظهر إلى عالم الوجود . .

— إن ذلك لا أعرُفه ياسيدى ولم يظهرْ لى ، والذى عرفته أخبرتك به .

— ألا تعرفُ فى أى مكان من الحجاز يظهر هذا الرجلُ الذى بان لك أنه يخلِّصُ بلادى من الأعداء ؟

— إنه يظهر فى مكةَ ، وهى البلد الذى تأتى إليه العرب فى كل عام للقيام بواجبات الزيارة .

— أريد منك أن تذهب إلى مكة منذ اليوم وتبحثَ عن هذا الفارس وتعرفَ هل ولدَ أو لم يولد وإذا كان قد ولد فاتصل بأبيه وادفع اليه الهدايا والأموال التى ستحمِّلكَ اياها من أجله. ودَعْه يربى الغلام على نفقتى ويعتنى به ويهيىء له كلّ الأسباب النافعة ، حتى إذا وصلنا إلى الزمان الذى أشرتَ إليه يكون قد كبر فى طاعتنا ، فنرسل إليه ونستدعيه فى الحال .

— سمعاً وطاعة يا ملك الزمان .



أمر الملك أن تحضر الهدايا الثمينة من كل ما غلا ثمنه وخف حمله ، وأخذها « بزرجمهر » وسار قاصداً بلادَ العرب ومعه جماعةٌ من الفرس يسيرون فى خدمته، وقد شعر بمنتهى السرور لمسيره إلى مكة ، فسيزور بيتَ الله الحرام ، ويشاهد مادلت عليه الدلائل، ومَنَّى نفسه بالمستقبل السعيد الذى يرجوه حينما يرى الفارسَ العربىَّ يحطمُ معابدَ النار ويخلص العربَ من ظلم الفرس ، ويُذِلّ الدولةَ الكِسْرَوِيّةَ ، ويصير له شأنٌ أىَّ شأن .

ظل الوزير سائراً حتى وصل إلى « الحيرة » فخرج الملك النعمان لاستقباله ورحب به ، وأقام بزرجمهر فى ضيافة النعمان ثلاثة أيام ، ثم سار إلى مكة ، ودخلها ، فاستقبله حاكمها « الأمير ابراهيم » وكان رجلا يعبد الله ويتقيه ، ويعلم أن بُزُرْجَمْهَرَ وإن كان وزيرَ الملكِ الأكبر كسرى أنوشروان الذى يشمل ملكهُ بلادَ العجمِ والعربِ والتركِ والديلم ، من أهل المعرفةِ والآداب ومشهور بالعلم والذكاء .

مكث بزرجمهر فى ضيافة أمير مكة ثلاثةَ أيام ، والمضيف لا يعلم الغاية التى جاء من أجلها الضيف الكبير ، وكان بزرجمهر فى خلال هذه المدة يفكر فى مهمته وكيف يعثر على ضالته المنشودة ، ثم سأله سؤالا فى منتهى الغرابة . .

— هل زوجتك حامل ؟

فدهش الأمير ابراهيم من هذا السؤال ، ولكنه لم يُظهِرْ دهشتَهُ لثقته بالوزير الأريب ، فأجابه :

— نعم ، وهى فى الشهر الأخير .

— اعلم يا ابراهيمُ أنِّى بالهامِ الله تعالى أتيتُ لأخبرك بأنها ستأتى بولد ذكر يرتفع مقامه ويعلو شأنه ويكون أشجعَ مَنْ حَمَلَ السيف وركب الجواد .

وحكى بزرجمهر لحاكم مكة ما كان من حلم كسرى أنو شروان صاحب التاج والإيوان ففرح ابراهيم بالبشرى ، وسر منها خاصة عندما علم أن ولده سيكون سببَ خلاصِ العرب من العجم وتدمير معابد النيران والقضاء على الظلم والطغيان .

وأقام الوزير بمكة خمسة عشر يوما ، وفى اليوم السادس عشر ، وبينما كان جالساً مع الأمير إبراهيم وكبار العرب فى ديوانه ، جاء المبشرون يبشرون الأمير بأن زوجته وضعت ولداً ذكراً ، فكاد يطير من الفرح لأنه أولُ ولد له ، ولِما سمعه عنه قبل ولادته من بزرجمهر ، وغمر المبشرين بالعطاء .

ثم أقبل وجهاء القبيلة يهنئون الاميرَ ابراهيمَ بالمولود ، وجلسوا معه ينتظرون رؤية الغلام ، على حسب العادة المألوفة ، وهى أن يُؤتَى بالولد إلى أبيه ويُعْرَضَ عليه بين رجال قبيلته ليراه الجميع . وبعد قليل جيء بالغلام فأخذه والده ونظر فى وجهه ، فتعجب من حسن طلعته ونصاعة جبهته وكبر جسمه . وبعد أن قَبَّلهُ قدَّمَه للوزير بزرجمهر ، فأخذه وأنعم النظر فى وجهه وجعل يُسبِّحُ بحمد الله على ما يخلق وما يدبر . ثم التفت إلى الأمير إبراهيم وقال له :

— أوصيك أيها الأميرُ الكريمُ على مسمع من رجال قومك — بالاعتناء بهذا الغلام وتربيته وتهذيبه وتعليمهِ ، فهو صاحبُ السيف والقلم والبند والعلم والذكر الحميدِ الذى يشتهر بينَ العرب والعجم ، وانى ما أتيت إلى هذه البلادِ إلا للبحث عنه ورؤيتهِ . وكل ما أتيت به من عند كسرى فهو على اسمه ولأجل نفقته لكى ينشأ على اسم الدولةِ الكسرويةِ..

فقال الأمير ابراهيم :

— إنه ولدى ، والاعتناء به من واجبى ولا سيما أنك أخبرتنا بمستقبل حياته بما أعطيتَ من العلم والحكمة ، وأرجو أن تسميهُ بالاسم الذى تختاره .

قال بزرجمهر :

— إن اسمه « حمزة » .

وكان بزرجمهر يعرف أن اليوم الذى وُلدَ فيه حمزةُ يومٌ سعيد وأن كل من يولد فيه يكون سعيداً ، وطاب أن يؤتى بكل ذكر ولد بالمدينة فى هذا اليوم . وشاء القدر والتدبير الإلهى أن يولد فى هذا اليوم نفسهِ ثمانمائة غلام أتى بهم جميعاً وقدموا إلى وزير كسرى ، فجعل يسمى كلَّ واحد منهم ، ويعطى أباه مبلغاً من المال ليربيه على نفقة الملك كسرى ، ويكتب اسمهُ عنده ويوصى به .

وكان أحد أتباع الأمير ابراهيم متزوجا بجارية سوداء ، وكانت فى ذلك اليوم حاملا فى شهرها السابع ، فلما رأى الوزير يدفع الاموال إلى آباء الأولاد كى يربوهم على نفقة كسرى ويكتبوا من رجاله — لعب به الطمع فاندفع يجرى إلى زوجته ويقول لها :

— إن الوزير يدفع الأموال إلى آباء الأولاد الذين يولدون اليوم ، فيجب أن تضعى الآن . عسى المولود يأتى ذكراً فينالنا خيرٌ عظيم .

— ليس الآن وقتُ ولادتى .

— يجب أن تلدى الآن !

— كيف ألد اليوم والله لم يأذن بعد ؟ !

فغضب الزوج وجعل ينهر زوجته ويضربها على ظهرها وهى تصيح حتى سقط الولد . . وتشاء العناية الإلهيَّة أن يكون حياً وفى غاية الصحة . ورآه أبوه ذكراً فأسرع به إلى إلى الوزير بزرجمهر ملفوفا فى خرقة قديمة . وكان أحد جيرانه قد سبقه وأخبر الأميرَ إبراهيمَ بما وقع بينه وبين زوجته ، فأمر أن يأخذ الغلام منه وأن يُقَيَّدَ ويضربَ جزاء له على مافعل . ولكن الوزيرَ طلب أن يقدم إليه الولد ، ونظر فى وجهه متأملا .. وفى الحال أمر أن يطلق الأب ، وقال للأمير :

— ذلك من تدبير الله سبحانه وتعالى .. خذ هذا الغلام واعتَن به كلَّ الاعتناء ، إنه « عمرُ » ساعد حمزة الأيمن ، وعصاه التى يتوكأ عليها فى حياته ، وسيحتاج اليه فى الأزمات والمواقف الحرجة .

— أمرك ياسيدى الوزير . سأرَبِّيهِ مع ولدى حمزة وأجعله رفيقاً له .

لم يعد هناك سبب بعد ذلك لاقامة بزرجمهر فى مكة ، فغادرها عائدا فى ركبه إلى « المدائن » مُوَدَّعاً من الأمير ابراهيم ورجال قبيلته . وفى الطريق مر بالحيرة ونزل ضيفاً على النعمان عدة أيام وحدثه بما وقع له فى مكة . ولما وصل

إلى بلاد العجم قصد إلى إيوان كسرى ، ودخل عليه ، فاستقبله الملك وهو فى غاية الشوق إلى أن يعرف ما حدث ، فحكى له الوزير ما شاهده وما فعله ، إلى أن قال له :

— وقيدت اسمه من رجالك وسميته حمزة العرب ، ورأيت أن أكتب كلَّ ذكر يولد فى ذلك اليوم بمكة من رجال دولتنا ، ومن عجائب الدهر أن يولد بمدينة صغيرة فى يوم واحد ثمانمائة طفل ذكر دون أن يكون فيهم أنثى واحدة ، فعرفت أن هذا من دلائل التوفيق لحمزة ، إذ يكونون ثمانمائة فارس يركبون بين يديه ، ويسعدون بسعده ، ويجرى عليهم ما يجرى عليه .

فرح كسرى بما سمعه من وزيره ، وأسبغ عليه مزيداً من الإنعام ، وشكر له إهتمامه بأمر الدوله ودفع المصائب عنها قبل أن تحلَّ بها ، وعاش بعد ذلك مستريح البال ، واستأنفَ حياته بما اعتاده من البَذَخ واللهو .



الفصل الثالث

وأما ما كان من الأمير ابراهيم أمير مكة فإنه داوم على الاعتناء بولده وهو مسرور بما سمعه من الوزير بزرجمهر من أن ابنه سيكون السبب في خلاص العرب من نفوذ العجم وتعزيز الدولة العربية وإبادة الدولة الكسروية. وكان يعتنى أيضاً بتربية عمر بن العبد لما علمه من أنه سيكون تابعاً لولده ونافعاً له، وقد لاحظ أن هذا الغلام الأسود وجهه صغير مستدير وعيناه ضيقتان مستديرتان كأنهما ثقبان ينفذ منهما شعاع ثاقب ورجلاه طويلتان دقيقتان كأنهما خيطان، وكان كثير الحركة لا يكاد يستقر في مكانه.

ولما بلغ حمزة أربعة أعوام كان الذى يراه يظنه ابن عشرة أعوام لامتلاء جسمه وطول قامته ونمو الهيبة التى كانت تبدو دائما على جبينه ولما تجاوز هذه السن دفعه والده إلى معلمين ومهذبين، فتعلم العلوم النافعة، ونشأ على التقوى وعبادة الله وحميد الصفات واتخذ عمر أخاً له، وقد أحب كل منهما الآخر. ولم يكن أحدهما يقدر على مفارقة أخيه.

كان عمر سريع الجرى لدقة ساقيه ونحافة جسمه، وكان مع ذلك قوياً صلب العود، أولع من صغره بالركض والقفز من الأماكن العالية، وما بلغ العاشرة من عمره حتى صار من أبرع العدائين وأشدهم وقد تعلم رمى النبال

حتى أصبحت نبلتـه لا تخطىء الهدفَ ، وكان يوقع الأذى بالأولاد الذين يشتبكون معه فى الشوارع والأزِقَّـةِ ، ويسطو على البساتين ، والناس تشكوه إلى حمزةَ دون الأمير ابراهيم خوفا منه . كان ذات يوم بالقرب من بستان فنظر داخله شجرة رمانٍ كبيرةِ الثمر ، فأعجبته ، وقال فى نفسه لا بد أن آخذ منها لأخى حمزةَ ، وضرب رجليه بالأرض ، فارتفـع إلى أعلى الحائطِ ، ووضع يديه عليه وقفز إلى الداخل كأنه العفريتُ ... غير ملتفت إلى صاحب البستان ، وقصد إلى شجرة الرمان ، فتسلقها وجعل يقطف من ثمرها ويضع فى عبه . وإذا صاحب البستان واقف تحت الشجرة ينظر إليه و يصيح به :

— ويلك ياعبدَ السوء .. إنى كل يوم أجىء إلى البستان فأرى الأشجار مكسَّرَةَ الفروع وأثمارَها منهوبة .. ولا أعرف من الذى يفعل ذلك .. حتى رأيتُـك الآن ، فلا بد من ضربك وتأديبك .

— إنى ما أتيت بستانَك إلا هذه المرة .

— أتيت كثيراً أيها الملعون .. فانزل وإلا صعدتُ إليك ورميتك من أعلى الشجرةِ . فقفز عمرُ من أعلى الشجرةِ إلى الأرض فى سرعةِ البرقِ والرمانُ يملأ عبَّه .. وقبل أن يتمكن الرجل من الدُنُـوِّ منه أخذ قبضة رمل من الأرض وسدَّدَها إلى وجههِ وفرَّ هارباً . وبقى صاحبُ البستان يتوجع ويدعَكُ عينيه ويتحسر على أنه لم يقبض عليه ليقتله ، وظل أكثرَ من ساعة ينفض الرملَ عن عينيه ويغسلهما بالماء . ثم قصد إلى ديوان الأمير ابراهيمَ ودخل عليه موجعَ العينين ، وشكا إليه الغلامَ عمرَ وما فعل . فاغتاظ الأمير وأرسل فى إحضار

عمر ، وكان عُمر قد وصل إلى أخيه حمزةَ ودفع إليه الرمانَ ، فسأله : من أين هذا ؟ فحكى له قصتَه مع الرجل ولم يُخْفِ عنه شيئا مما حدث ، فضحك حمزةَ أولا ، ثم أمسك عن الضحك وقال لعمر فى لهجةٍ حادةٍ صارمةٍ :

— لماذا تصنع هذا الفعل ؟ إن مالَ الناس محفوظٌ وليس من حقنا التعدى عليه ، وقد أوصَيْتُكَ مراراً ألا تتعدى على أحد .

— إنى أحِب أن أطيعك ، ولكنى رأيت هذا الثمر الشهى ، فتاقت نفسى أن أطعمك منه ، وإذا لم أحضر لك منه لا يستريح بالى ولا يطمئن قلبى .

وفى هذه اللحظة دخل رسول الأمير وقال لحمزة : إن أباك أرسلنى لآخذَ عمر ، فأدرك حمزة أن هذا الطلب لا بد أن يكون بسبب حادث البستان ، فنهض ومعه عمر ودخل على أبيه وقبَّلَ يده ، ثم تقدم عمر وأراد أن يقبل يد الأمير ، فمنعه ونهره قائلا :

— كيف تتعدى على أموالِ الناسِ وتتقرَّب منى ؟

وقال للعبيد :

— خذوه فألقوه إلى الأرض واضربوه خمسين سوطا .

التف العبيد بعمر وحاولوا التمكن منه ، ولكنه دفعهم عن نفسه ، وصاح مستجيراً بأخيه حمزةَ الذى أخذته النخوةُ ونسى وجودَ أبيه .. فانقض على العبيد وأخذ واحداً منهم بين يديه ورفعه إلى ما فوق رأسه وضرب به الباقين فصرعهم ..

لما رأى ذلك الأميرُ ابراهيمُ لعب به الغضب من فعل ابنه ، وصاح به :

— أتُمزِّق حرمتى ولا تراعى جانبى !

فتنبه حمزة إلى ما فعله ، وسكت . لم يجب بكلمة . وَهَمَّ به أبوه يريد أن يؤدِّبَه ، ولكن سادة القوم قاموا إليه وطلبوا الصفحَ عنه ، وهم يعجبون من قوتهِ وشجاعتهِ مع صغر سنه .

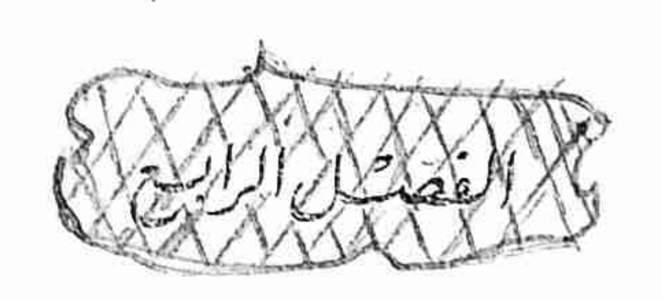
وتقدم حمزةُ من أبيه يعتذر إليه :

— اسمح لى يا أبى . . إن الحدةَ قد دفعتنى إلى ذلك ، لأنى أعلم أن عمرَ مظلومٌ . فهو لم يقصد سرقة الرمان إلا لأجلى . .

— أمن أجلك يعتدى على أموال الناس ؟

— كان فى وسع الرجل بعد أن عرف أنه أخى أن يسكت عنه ويأتى إلى فأمنعه من العودة ثانية إلى البستان ، وأعوضه عن الرمان الذى أخذه ، ولا سيما أن عمرَ صغيرٌ قاصرٌ ، وما على القاصر من حرج .

— وأصلح السادةُ الحاضرون الأمرَ ، فأرضوْا صاحب البستان وصرفوه واستعطفوا الأميرَ على ولدهِ وعمرَ ، فصفح عنهما .



الفصل الرابع

في اليوم التالي لذلك الحادث جاء سادةُ المدينة إلى الأمير ابراهيمَ ، وقد اتفقوا على أمرٍ ، سلموا عليهِ وجلسُوا بين يديْه ، ثم قال قائلُهم :

— إننا أيها الأمير لا نزال نتذكر كلامَ الوزير بُزُرْجَمِهْرَ وما أشار إليه من أمرِ ابنِك حمزةَ ، وقد ثبت عندنا ذلك بما رأينا منه أمس ، فهو وإن كان لا يتجاوزُ عشرَ سنوات قد فعل ما لا تفعله الجبابرةُ ، لهذا جئنا إليك نسألك أن تعلم ابنَك فنونَ القتال وتدرِّبَه على ركوبِ الخيل ، لكي يتمَّ ما بَشَّرَ به بزرجمهر من أنه يخلِّصُ العربَ من العجم ويرفعُ عنهم ذلك النيرَ الذي تحمَّلوه زماناً طويلاً .

قال الأمير ابراهيم :

— لقد أصبتم بذلك ، وإني أفكر فيه دائما ، وكنت أحبُّ أنْ أؤجِّله إلى أن يبلُغَ الخامسةَ عشرةَ ، إلا أنَّ ما فعله أمس كاف ليظهر لي قوته ووجوبَ تدريبه .

ثم دعا إلى اجتماع عام في ساحة كبيرةٍ خارج المدينة ، حضره كبراء القبيلةِ وفرسانها وجمهورٌ كبير من الناس ، وتصدره الأميرُ ، وحضر حمزةُ وعمر ، ووقف حمزةُ أمام أبيه وقبل يده ، فقال له أبوه بصوت يسمعه الجميع :

— اعلم ياولدى أن أعداءنا كثيرون ، ومن عادات العربِ أن يتعلموا فنون القتال ، ليكونوا دائما على استعدادٍ للدفاع عن القبيلةِ إذا أغار عليها الأعداء ، ومن كان أشد بأسا كان له الفوزُ والنجاحُ ، ولهذا قد عينت هذا المكان ليقام فيه كل يوم ميدان طرادٍ ونزالٍ ، وقصدى أن تتعلمَ فنونَ الحربِ وتتخرَّج فيها ، عسى الله أن ينصر العربَ على يديك .

ففرح حمزة أشد الفرح وقال :

— هذا الذى أريدُه ، وطالما تاقت نفسى إليه .

وقُدم إلى حمزة جوادٌ من الخيول العربية الأصيلة ، فاعتلى ظهره وأطلق له العنان ، وأخذت الفرسانُ تحيطُ به وتركضُ أمامه بخيولها ، فيتأثرها ثم ينطلق أمامها وهو ثابت على ظهر الجوادِ كأنه قطعةٌ من الحديد .

ظل حمزةُ يتدرَّب على ركوب الخيل كلَّ يوم ، وما انقضى شهر حتى حذِقَ كلَّ فنونِ اللَّعبِ على الخيل .. كان ينزلُ إلى الأرضِ ويعودُ إلى ظهْرِ الجوادِ أسرعَ من البرق ، ويدورُ حتى يختفى تحت بطنهِ وعُنقِه ويستتِر بهِ من كل جهاتِه وهو راكضٌ ، ففاق بذلك كلَّ فارس . وأخذ بعد هذا يتدرَّبُ على استعمالِ السلاحِ وأدواتِ الحربِ حتى أصبحَ فى مدةٍ قصيرةٍ على درجةٍ عظيمةٍ فى فنونِ الضربِ والنزالِ .

ودعا الأميرُ ابراهيمُ إلى الاجتماعِ العامِّ فى الميدانِ لامتحان ولدِه فاجتمع خلق كثير من شبان وشيوخ ونساء ، وأقبل حمزةُ فوق جواده كأنه البرجُ

الحصين وعلى وجهه لثام لا يظهر من تحته إلا عيناه وهما تقدحان كالجمر ، وعلى رأسه خوذةٌ من الحديد ، وقد دُجِّجَ بالسلاح من رأسِه إلى وسطِه ، بيده رمحٌ مسنونٌ ، ويلاصق جنبه سيفٌ عريضٌ وبين يديْه عمرٌ كأنه النار ذات الشرر .. يسبق الخيول بقفزهِ وخفة سيره .

ولما بلغ حمزةُ مكان أبيه ترجّل عن جوادهِ وقبّل يده وقال له :

— إنى أسألك أمرا ياأبى ولا أحُب أن تمنعنى عنه .

— ماذا تريد ؟

— أريد أن تأمر فرسانك وأبطالك أن يقفوا جميعاً فى جبهة واحدة ، وأقف أنا وحدى فى الجبهةِ الثانيةِ ، فمنِ أصابَته جريدتى خرج من الميدان ، ومن أصابتنى جريدته كان له علىَّ حق التقدم . وبعد أن يفرغ الجميع نعودُ إلى الضربِ بالرماحِ : فمن وصل رُمْحى اليه انعزل من الميدان .

استعظم الأميرُ إبراهيمُ هذا الطلب وقال لولده :

— إن دلك يغيظ قومَنا ، وإنك لا تقدر على ما تقول ، فالفارس المحنك يصعب عليه أن يقاتلَ وحده مئاتٍ من الفرسان ، وأنت لم تقاتل قبل الآن ولم تجرِّب الوقائعَ والأهوالَ .

— إن قومنا إذا رأوا منى ما يرون فسيفرحون ، سوف تنظر بعينك ما أفعل أمامك .

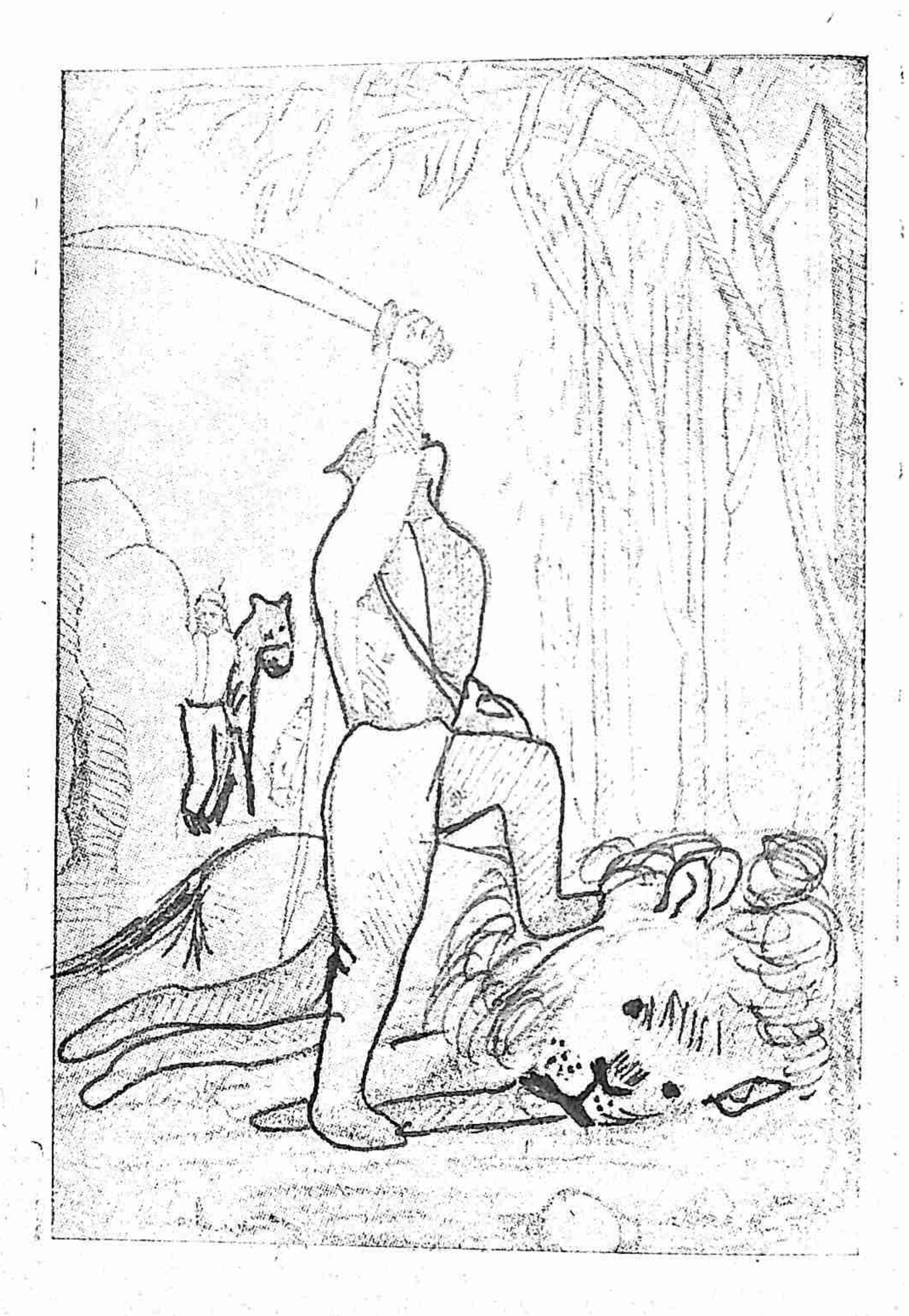
فأجابه أبوه إلى طلبه، ونُظِّمَ الميدانُ فى جبهتين، وقف الفرسان فى جبهةٍ، ووقف حمزةُ فى الجبهةِ الثانيةِ. وابتدأ اللَّعِبُ بالجريد، فجعل حمزة يضرب بجريدتهِ فيصيب الرجال، وكلما رمى أحدُهم بجريدته أسرع عمر فالتقطها قبل أن تصل إلى الأرض وأعادها إليه. والفرسان تصوب إليه بعصِيِّها، فيتفاداها بمهارتهِ. يدخل تحت الجواد ويدورُ إلى جانِبه ويلوِى عنانه.. وما انتصف النهار حتى كان قد أصاب جميعَ الفرسانِ. وأخذت الدهشة جميع الحاضرين، فعلا صياحُهم وإهلالهم وراحوا ينظرون إليه بعجب وإكبار. وعندئذ ألقى عصا الجريد من يده وتناول رمحَه وطلب نزال الفرسان على أن يبرُز الجميع إليه فى وقت واحد:

دهش أبوه.. واختلط فى قلبه الفرحُ بالخوفِ عليه، ولكنه أمر أن تَنْزل الفرسانُ جميعاً إلى ولدِهِ إجابةً لطلبِهِ. فصاحوا وهجَمُوا عليه من كل مكان، فقابلهم بعزمٍ ثابتٍ وجَنَان قوىٍّ، وجعل يطعنهم بِسِنَان رمحِهِ، وكل من أصابَه السنان ينعزل عن الميدان. وما قدِر أحد منهم أن يتمكن منه بضربة أو يصل اليه بطْعنَةٍ، فقد كان ينحدر إلى بطنِ الجوادِ ويقفزُ على ظهره أسرعَ من البرق ويضيع طعن الرماح فى الهواء، وعمر يدورُ حواليه كاللولب ويأتى بحركاتٍ تجفل منها خيول الفرسان.

وما انقضى النهارُ حتى كان قد فرَغَ من الجميعِ، فنزل عن جواده وتقدم من أبيه وقبل يده فأخذه إلى صدْره وقبَّلَه وهو يذْرُف دموعَ الفرحِ ويشكر

الله على ما وهب لولده . وأقبل عليه فرسان القبيلة يصافحونه ويحيونه ويبدون إعجابهم وسرورهم به .

وكان الثمانمائة الغلام الذين ولدوا فى المدينة يوم ولادته قد تعلموا الحرب والطعن والضرب ، على حسب ما أوصى به آباءهم الوزير بزرجمهر وحضروا الميدان مع من حضر فى ذلك اليوم ، وما منهم إلا من أحب الأمير حمزة وعقد العزم على أن يكون من فرسانه وتمنى أن يحوز رضاه .



الفصل الخامس

منذ ذلك اليوم أخذ الأمير حمزة يخرج للصيد والقنص مع أخيه عمر الذى صار كشّافا ملازماً له . يتوغّلان فى الصحراء والأدغال ويأتيان بالوحوش والغزلان . وذات يوم خرج وبين يديه عمرُ ينطلق كالشهاب ، وبَعدَا عن الديار وأوغَلا فى القفار ، لأن الوحوش جفلتْ منهما وبعدت والتجأت إلى الكهوف والمغاور . وإذا هما يريان أسدا رابضا تقدَح عيناه كشرار النار . . قال عمرُ لأخيه :

— ارجع بنا ولا تقْرب من هذا الأسدِ ، وإلاهجَم علينـــا وافترسنا

فصاح فيه :

— ويلك ياوجْه القرد ! أتخافُ هذا الهِرَّ . . وتريدُ أيضاً أن تخيفنى منه !

وخفض صوتَه فى استهانةٍ وهو يقول :

— ما الأسدُ إلا كالأرانبِ التى أصطادُها كلَّ يوم . .

ونزل عن جوادِه ، وتناول سيفهُ ، وتقدّم إلى الأسد . . فلما رآه الأسدُ مقبلًا عليه والسيف بيده لعب به الحنق فوثبَ واقفا وزأر وكَشّر عن أنيابه ونفخَ فى أنفِه . . وانقضَّ على الأمير حمزةَ يريُد أن يفترسَه ، فتفادى حمزةُ هجْمتَــهُ ، وأسرَع اليه بضرْبةٍ حسام شقت رأسَه إلى كِتفِه ، فوقع على الأرض يضطرب

فى دمه . ودنا منه حمزة ، وكان يسمع أن من يأكلُ قاب الأسدِ يقوَى قلبه ، فشقّه إلى بطنه وأخرج قلبَه وجَعَل يأكل منهُ ، وعمرُ ينظر إليه ويتعجّب ، ويتقدم يأكل معه ، وحمزُةَ يقول له : كلْ منه يشتد قلبك .

ولما رجعوا إلى المدينة راحَ عمر يتحدّث إلى الناسِ بما كان من حمزة مع الأسدِ وقتْـله إياه ، والناسُ تتعجّب منه . ووصل الخبُر إلى الأميرِ ابراهيمَ ، فاستدعى ولدَه وعمرَ ، وسألهما عمّا حدث ، فحكى له عمرُ كلَّ ماوقعَ ، فتعجَّب من ذلك ، ولام حمزَةَ وقال له :

ــ لاتعرِّض نفسك مرةً أخرى لمثلِ هذا ، فقد تلتـقى بأسدٍ لاتقدر عليه فتقع فى التهلكة .

فقال له أحد الحاضرين من سادة القوم :

ــ لاتخَفْ عليه أيها الأمير ، فإن الله أعطاه هذه البسالةَ والشجاعَة لـكى يقتل كل طاغ وباغ ، ولو لم يكن اللهُ يريدُ هلاكَ هذا الأسدِ ما بعث إليه ابنك ، ثم إن الله قد وعدَ بطولِ عمره وبالفوزِ على الأعداءِ ، كما أشار فى قديم الأيامِ الوزير بزرجمهر .

وقال آخر :

ــ نعم أيها الأمير ، إن حمزة سيكبحُ دولةَ الفرس ويخلِّصُ العرب من هذا النير الثقيلِ الذى حملناه زماناً طويلًا .

٥

الفصل السادس

دخل حمزةُ على أبيه فى إيوانه ، وطلب إليه أنْ يسلِّمهُ الثمانمائة الغلام الذين ولدوا يوم ولادتِه ، فزاد فرحُ الأبِ بابْنهِ وحمد اللهَ على ما أرادَ للعربِ من العزةِ على يدِ ولده وردْع ملوكِ الفرس وغيرهم من طغاةِ الملوكِ ، ثم دفع إليه الثمانمائة الغلام وأخذَ حمزةُ يتم تدريبهم على فنونِ القتال ، ورأى عمرُ أن يحذو حذوَ أخيه حمزة ، فاختار أربعين غُلاماً من العدَّائين ذوى النشاطِ والذكاءِ وسرعة الحركة ، ودرَّبهم على كشفِ الطرُق والدرُوب وفنونِ الخداعِ والحيلِ فى الحروب .

وذات يوم علم أنّ جماعةً من الجنودَ بعضهم من العرب وبعضهم من العجم — وصلوا إلى ضواحى مكةَ ، وضربوا خياما ونزلوا بها . فأرسل أخاه عمر كى يكشِف خبرَهم ، فانطلق إليهم عمرُ ، ثم عادَ وقال له :

— إنّ سكان هذه الخيام من العرب والعجم ، وقد جاءوا على حسب العادةِ لأجل أن يجبُوا الأموالَ لكسرى ، فالعرب من جماعة النعمان بن المنْذِر ، والعجم من جنود كسرى أنو شروان .

— سمعت بذلك من قبل ، وإنى أعجب كيف يجسرُ العجم على المجىءِ إلى بلادِ العربِ والعربُ أشدُّ بأسا وأقوى مِراساً ، قد اعتادوا الحروب وملاقاة الأهوالِ ، على خلافِ العجَم أهل البذخِ واللهوِ والزينةِ .

— اعلم أنّ العجَم كثيرُو العددِ ، وكلهم يجتمِعون إلى ملك واحد ، ويوحّد كلمتهم وصفوفَهم ، فلا يُغيرُ قومٌ منهم على قومٍ ، كما تفعل العرب الذين دأبوا على التفرق والشقاقِ والحروبِ فيما بينهم ، وأكبرُ ملوكهم — وهو النعمانُ — منقاد لكسرى متّفِقٌ معه على دينِه .

— ومادين النعمان ملك العرب ؟

— كان من عُبّاد الله ولا يزال ، ولكنه يُجارى الفرسَ فيُكرم النارَ ويقدِّم لها مزيدَ الاعْتبار ... لعب الغيظُ والغضبُ بحمزة فنهض وقال :

— لابد من الهجوم على هؤلاء الجنودِ فى خيامهم وتأديبهم حتى لايعودوا مرّةً ثانيةً ، ولابد من منْع كسرى والنعمان من أخذ أموال العربِ ، وإذا غاظهما ذلك سِرْت إليهما وقتلتهما ولا أخْشَى بأسَ أحدٍ .

وما يشعر الجنودُ المقيمون فى الخيام خارجَ مكة إلا وقد أحاط بهم حمزةُ ورجاله ، وأوقع فيهم بالسيف ، فاضطربُوا ، ورأوْا من شِدّةِ بأسِ المهاجمين ماأفزعَهُم ، فأسرعوا إلى خُيُولِهم يريدون الفرارَ والنجاةَ فمنهم من نجا ومنهم من قُتِل . وعاد حمزةُ ورجالهُ إلى مكة بالأسْلاب ، وفيها الأموالُ التى جمعت من قبائل العربِ لكسرى .

ولما بلغ الخبرُ الأميرَ إبراهيم وكبارَ قومِه غضبوا من فِعْل حمزةَ لأنهم يحسبون حساب النعمان وكسرى ، ويخشون أن يبعثا إليهم بجيش كبير يخضعهم وينتقم منهم ، واستدعى الأميرُ إبراهيم ولدَه وقال له :

— لقد جلبْتَ لنا شرًّا عظيما ، وأرى أن أبعثك إلى النعمان تعتذرُ إليه وتُرْجِعُ له أموال كسرى والمال الذى ندفعه إليهم ، وتظهر له أنكم ماعرفتم قومه .

— إنى أعجب منك ياأبى .. كيف يضْعُفُ قلبُك ويتسلَّط عليك الخوفُ ! أتدفعُ الجِزْيةَ وعندك رجال وأبطال وابنك حمزة لايخاف أحدا فى هذه الدنيا ؟ اعلم ياأبى أنى لن أكتفى بما فعلت ، فلابد من المسير إلى الملك النعمان وأرى كيف يخضع لملك العجم وهو عربى ومن الواجب عليه أن يكون مع العرب ويجمعهم كلهم ضد أعدائهم ويمنعَ أبناءَ جنسه من الذل ودفع الجزية لقوم يعبدون النارَ ، وبعد أن أفرغَ من النعمانِ أسيرُ إلى المدائن وأهدم الإيوان على رأس كسرى أنو شروان وأضْرِبُ معابدَ النيران .

فقال له أبوه يحاول أن يثنيه عن عزمه :

— ياولدى إنك تتكلم عن أمور لاتعرفها ، أتظن النعمانَ قليل الأنصار والأعوان ؟ ألا تعلم أنه ملك ملوكِ العرب وصاحب الرايةِ الكبرى بينهم ؟ أو لا تعلم من هو كسرى أنو شروان ؟ أتظنه من بعض رؤساءِ القبائلِ الذين ليس عندهم من الرجال إلا خمسمائة أو ألف رجل على الأكثر ؟ تنبه إلى نفسك واعلم أنَّ كسرى أكبرُ ملوك هذا الزمان ، يملك ما لايعلمه غير الله من ملايين العساكر ، فمن نحن ومن منا يذكر لدى ذكر الملك كسرى ؟ ان التبصّر بالعواقبِ وتدبر الأمرِ قبل الوقوعِ فى المهالك أفضلُ لنا وخير من أن نقع فى الشدائد وعظائِم الأمور .

قال حمزة مصراً :

— إننى لن أندم على مافعلته ، ولن أرجع عما اعتزمته .

فلما رأى سادة مكة إصرار حمزة ورأوا غيظ أبيه منه وخوفه عليه وخشيته من عواقب فعله قالوا له :

— اعلم أيها الأمير أن ابنك هو من رجال كسرى ، وكذلك الذين معه ، فاذا سُئلت عما يحدث منهم فقل لاعلم لى بهذا وأن هؤلاء ينتمون إليكم ، ولاريب أن كسرى سيتسامح مع حمزة لعلمه أنه بحاجة إليه كما أخبره بزرجمهر ، فدع الأمر يمضى كما أراد الله ، عسى أن يكون فيه خير العرب وتحقيق آمالهم .

الفصل السابع

خرج حمزةُ من مكة ومعه رجاله الفرسان الثمانمائة ، وكلهم شباب من سنه ، وبين يديه عمرُ الكشاف كأنه عِفريت من عَفاريت سليمانَ ينطلق كالسهم ، ويغيب عن الأبصارِ ، ويعودُ أسرعَ من هبوب الريح .

وعندما كان الأميرُ حمزةُ ورجالهُ على مسافة من « الحيرة » مقَرّ الملكِ النعمانِ أوغل هو وعمرُ فى طريقٍ ضيقٍ ، وسبقا بقيَّةَ الفرسانِ ، فشاهدا — على بعد — أربعةَ أشخاص من العجَم حفاةً عراةً موثوقين بالحبالِ فسألهم حمزةُ عن حالهم ، فبكوْا وطلبُوا منه الأمانَ ، وقالوا :

— كفانا ما نحنُ فيه من العذاب ، فليس معنا ما يُمسْك رمَقَنا ، ونحن الآن نموتُ جوعاً ، فاترُكْنَا نتدبر حالنا .

فقال لهم الأميرُ حمزة :

— لا تخافوا ، فإنى لا أقصدُ إيذاءكم ، ولستُ ممن يَضُرُّ الناسَ أو ينزع منهم ما يَمْلكُون ، ولا سِيما أنى أراكُم على حالةٍ تستحِقُّ الشفَقَةَ والرأفةَ ، فأخبرونى بأمركم ، ومن الذى فعلَ بكم هذا لأنتقمَ لكم منه وأُجازيه على فِعْله .

وأمر أخاهُ عمرَ أن يفُكَّ وثاقهم ويطعمَهم ، وبعد أن أكلوا واستراحوا تقدّم واحدٌ منهم إلى حمزةَ ليشرح له حالهم :

— اعلم أيها السيد المعظم أننا من قوم كسرى أنوشروان وأننا نشتغل بالتجارةِ ، نحمل البضائعَ من بلاد إلى بلاد ، وقد ذهبنا ببضائعنا هذه المرّة إلى بلاد اليمنِ ، فبعناها كلّها وربحنا فيها أرباحا عظيمة ، ثم عدنا قاصدين إلى بلادنا ، وأردْنا أن نمرَّ بالحِيرة لنستريحَ فيها ، ولكن ما وصلنا إلى هذهِ الجهةِ حتى خرجَ علينا فارسٌ طويل القامة عريضُ الأكتافِ واسعُ الصدر مدجّج بالسلاح إلى قمةِ رأسِه ، ومن خَلْفِهِ أربعُون فارساً كلُّهم مسلحون . وتقدم كبيرُهم هذا وسألنا فأردنا أن نُوهِمَه بأننا أقوياء عساه يتجنبنا ، فقلنا له :

— إننا من رجالِ كسرى أنو شروان نطوفُ بالبلادِ والعواصم فتكرمنا الملوك من أجله وترسل له معنا الأموال ، وما معنا الآن هو من أموال نحملها إليه :

فما كان مِنهُ إلا أنْ نزَع منا كلَّ ما معنا وأوثقنا بالحبالِ ، وقال ساخراً متحدياً :

— اذهبوا إلى ملككم وأخبروه بما جرى لكمُ وقولوا له إن الذى فعل بنا هذا هو « أصْفَران الدَّرَبَنْدِى » صاحبُ الحصن ، واسألوه هل يستطيعُ أن يخلِّصَ أموالَه من يدى ، وإن شاء فليَبْعَثْ بكل جنودِهِ ورجالِه لأجْعَلَهم غَنيمة لى وأريه ما نفعل بهم .

فقال لهم الأميرُ حمزةُ :

— سيرُوا أمامِى فى أمان وسلامِ ، ودلُّونى على « أصْفَران » هذا ، لأنتقمَ لكم منه وأُعِيد إليكم أموالكمُ وأزيد عليها من ماله .

وساروا ، حتى دنوا من قلعة « الدربندى » فقالوا لحمزة :

— هذه القلعة هى مقره ، وهو لابد سيخرج اليكم ، ونحن لا نقدر على الظهور أمامه حتى لا يهلكنا ، سنختفى فى مكان لا يرانا فيه ، حتى إذا انتصرت عليه ظهرنا ، وإلا رجعنا من حيث أتينا .

فعذرهم الأمير حمزة ، لأنه يعرف أن الجبن يفعل بأهله أكثر من ذلك ، وتركهم فى مكانهم ، وتقدم هو إلى الأمام ، وعمر يقول له :

— اصبر حتى يصل رجالنا ، فليس من الصواب أن نقاتل وحيدين .

— ويلك . . أتظننى أنتظر مساعدة أحد فى أمر أريده ؟ سوف ترى ما يكون منى ومن أصفران الدربندى هذا وقومه . .

الفصل الثامن

كان أصفران الدربندى من أبطالِ ذلك الزمان ، وقد اتخذ تلك القلعةَ حِصْناً له ، ومَعَه أربَعُون صَاحباً من الفرسانِ المعدودين ، يركبون لركوبه ، ويسيرون طوْع أمْره أينما سارَ . وقد قطع الطريق . فلم يدع قافلة إلا سلبها ما تحمل ، ولا فرقة من العساكر إلا أنزل بها الويل والهلاك . فانتشر صيته فى تلك الجهات ، وخافه أصحابُ التجارة فتَهَيَّبوُا المرورَ فى ناحِيَته خوفاً على أموالهم وأرواحهم . وقد رفعت شكاو كثيرة بشأنه إلى كسرى والنعمان ، فبعثا إليه بالعساكر لإخْضَاعِه ومنع أذاه وعدوانه على أبناء السبيلِ ، فكان يهزمهم ويبَددهم بقوة بأسه . واستمَرَّ على ذلك حتى جمَع أموالاً كثيرةً وصار كالملوكِ والأمراء .

كان أصفران جالساً فى قلعته بين أصحابه مسروراً بما وصل إليه من سطوة وغنى ، وإذا هو يسمع صوتا يناديه من أسفل القلعة ، فأطل من الشباك ونظر إلى صاحب النداء ، فوجده شاباً أمرد ، فرمقه باحتقار واستنكار ، وقال له :

— ماذا تريد ! ومن تطلب ؟ وما معك ؟

— ليس معِى إلا هَذا السيف الذى أعدَدْته لقطعِ رأسِك ونزع رُوحِك وإراحةِ الناسِ منك .

- من أنتَ حتّى تتفوّه بهذا الكلام !

- لن أقول لك من أنا الآن فانزل حالا ولا تطِل الكلام.

أراد أصفر ان أن يملك نفسه ويُرسل إلى حمزة احد أصحابه استصغاراً لشأنه، ولكن الغيظَ من كلام حمزة لعب برأسه وجعله يُسرعُ بركوبِ جوادِه والنزولِ إليه .. دنا منه ونظر إليه نظرةَ الفاحص فرأى دليلَ الشجاعةِ على وجْهِه، فقالَ لهُ :

- لماذا أتيت إليَّ أيها الغلام ؟ أخبرنى الخبر الصحيحَ قبل أن أُفقِدكَ الحياةَ، عساى أشفِقُ عليْكَ وأعفُو عنكَ، وأكْتَفِي بأخْذِ جوادِكَ وما معك.

- أتيت منتصراً للرجال الذين سلبتهم أموالهم وثيابهم وتركتهم جياعاً مُوثقين بالحبال.

- وما شأنك بذلك أيها الصغير ؟

- لا تغْتر بكبَرَ جسمِك ورأسِك، ولن تنجو منى الا إذا وعدتنى بالامتناع عن الاعتداء على عبادِ الله والرجوع عنْ هذه المظالِم.

استَبد الغضبُ بالدَّرَبَندِى، فاستل الحسامَ وانقض على حمزة انقضاض آسادِ الآجام، وقابل الامير حمزة الحسام بالحسام، وأخذ معه فى العراك والصدام، ما بين افتراق والتحام، وهما يصيحان بأصوات الرعود، ويزأران زئير الأسود.

وبينما هما على ذلك وصل رجالُ حمزة الى ميدانِ القتالِ ، وشاهدوا أميرهم على هذهِ الحالِ ، فوقفوا ينتظرون ما يكون من أمرِهما ، وكذلك وقفَ رجالُ أصفران الأربعون .

وظلَّ القتالُ متصلا بين حمزةَ وأصفران ، والطعن بينهما متبادلا بخفةٍ وإتقان ، وهما يجولان فى ساحةِ الميدانِ ، وبينما هما على ذلك أسرع الأصفران إلىَ الأميرِ حمزةَ بطعنةٍ ظن أنها لابد ستصيبه ، ولكن حمزة غطس تحتَ بطن الجوادِ ، فضاعت الطعْنةُ فى الهواءِ ، ثم اعتدَل على ظهرِ جوادِه ، وصاحَ بصوتٍ كالصاعقةِ ، اهتزَّ منه الأصفران ، وضعفت قوته ، وأراد أن يُشهر سيفه فلم تُطعْه يدُه ، نظر الأميرُ حمزةُ الى ماحلّ به من الضَعْفِ وما وقعَ فيهِ من الكرْب ، فقربَ منه ومدَّ يده فانتشلهُ من ظهرِ جوادِه ، وألقاه إلى أخيهِ عمرَ ، وقال له :

— شُدَّ وثاقه حتى أبدد رفاقه .

فصاح به الأصفران :

— العفو يا أمير حمزة البهلوان ، فانى رفيقك على طولِ الزمانِ أخدم ركابك أينَ سرتَ وفى أى مكانٍ . .

بُهتَ الأميرُ حمزةُ لذكرِ اسمِه ، وقال له :

— كيف عرفت أنى حمزةُ وأنا لم أذكر أمامك اسمى ؟

— لذلك قصة حدثَتْ لىَ مُنْذُ سنوات .

— ومَا هِى هَذِه القِصّة ؟ ؟

قال أصفران :

اعْلم ياسيِّدى أَنّى أردْتَ ذاتَ يوم التّوغُّل فى البرارى والقِفار ، فمررْتُ فى سَيْرى بكهفٍ فى حُضْن الجَبل ، فنزلتُ لأستظل فيه من حرارَةِ الشّمْس . ودخَلتُ فرأيْتُ فى الكَهْف رجُلا معتكفاً به قد طال شَعْره وابْيضّ ، فأخَذَتنِى هَيْبتَه ، وتَقَدّمْتُ للسلام عليه ، كان وجْهه يشرق بالنور ، فلم يسعنى إلا الخشوع أمامه على الرغم منى ، وعندما رآنى قال لى :

— أدخل يا أصفران . . فانى موعود بأنك تأتى إلى وتوارى جسمى فى التراب ، لأن يومى قد جاء ، ولم يبق فى العمر مَطمع ، وإنى مُشتاق إلى ملاقاةِ وجه ربى ، وعما قليل ينتهى كل شىء .

— فزادت حيرتِى منه وإجلالى لشأنه ، وقلت له :

— كيف عَرفتنى ؟ ومن أَخبرك بى ؟

— إن ربى أعطانِى من سابق المعرفة ما أمكننى أن أعرِف به مالا يعرفه غيرى . وقد عرفت أن الله يدعُونى إليه وأن أجلى قد انتهى اليوم وأن رجُلا يدعى أصفران الدربندى سيمُر هنا ويشتد عليه الحرّ فيلتجىء إلى هذه المغارة وأنه هو الذى يدفن جثتى .

استراحت نفسى إلى كلامِه ، وقلت له :

— هل لك أن تجيبنى ياسيدى عن سؤال أريد أن أسألك إياه ؟

ـــ ماذا تريد يا ولدى .

ـــ لقد نشأت على حُبِّ القتال ، حتى صرتُ فارساً معدوداً ، ومنذ وعيت فى هذه الدنيا وأنا أقاتل وأغير على القبائل ، حتى ألقيت الرعب فى القلوبِ وهابنى أعاظم الملوكِ مثل كسرى والنعمان ، ولم يكبحنى أحدقط ، فهل ياترى يقدر على أحد فيما بعد أو يُوجد فى زمانِى من يستَطيع الثباتَ أمامى فى القتال ؟

ـــ لا تغتر بنفسك ياولدى ، إنى أُخبرك خبراً مؤكداً . اتمد ولد منذ أعوام غلام سعيد فى مكةَ المطهرة اسمه حمزة بن الأمير إبراهيم وهو الذى يقدر عليك ويذلك ثم تكون من أتباعه ، ويكون لك معه وفى خدمته الشرف الأكبر . واعلم ياولدى أنه هو الذى يخلص العرب ويمتلك المدنَ والبلدان وينتشر صيته من مكان إلى مكان ، وتهابه جبابرةُ الزمان ، فعندما تلتقى به اقرأه منى السلام ، وإياك أن تكابر فى قتاله أو تحدثك نفسُك بالطمَع فيه .

وما انتهى من كلامِه حتى فارَقت رُوحه جسدَه فدفنته . ومنذ ذلك اليوم وأنا أفكر فى الرجل الذى أخبرنى به ، وهو أنت ، وقد سألتك عن اسمك فلم تخبرنى ، ولو أخبرتنى به لسلمت لك أول الأمر ورميت عليك سلام رجل الله .

تعجب الأمير حمزة من هذا الكلام غاية العجب ، وأطرق برهة يفكر ، ثم رفع رأسه وأمر عمر أن يترك أسره . وقال له :

ـــ يا أصفران ، لقد دخلتَ منذ هذه الساعة فى رفقتى وصرتَ من رجالى ، وإنى أريد منك الآن قبل كل شىء أن ترجع أموال العجم إليهم .

ـــ ألا تعرف ياسيدى أن العجم من أعداء العرب وأنهم يسلبون أموالهم ،

وأنهم من عبدة النار لايعرفون عبادة الله ، فكيف نرجع الأموال بعد أن عادت إلينا ؟

— إن الذي يأخذ أموال العرب هو كسرى ، وهؤلاء لاذنب لهم ، وقد وعدتهم باعادة أموالهم إليهم .

— إن الأموالَ جميعها داخلُ القاعة . وهي رهن أمرك . وإنه يسرني أن تنزل في ضيافتي بالقاعة ثلاثةَ أيام ، وسأسلمك وديعة أعطانيها الرجل المهيب في الكهف لأسلمك إياها ، وهي ستة معاضيد من الذهب واحدة لك . وخمسة لخمسة أولاد يولدون لك . تسلم لهم حين ظهورهم .

— وما نفع هذه المعاضيد وماهو القصد منها ؟

— إن القصد منها — حسب ماأخبرني الرجل — أنَّ لابسَها يُحفَظُ من الشر والغدر ويشتد ساعدُه حتى إذا أمسك قطعة من الحديد وشد عليها ذابت بين أصابعه .

أقام الأميرُ حمزةُ ثلاثةَ أيام في تلك القاعة ، وتسلم المعاضيدَ مندهشا لما رأى عليها من الكلمات المكتوبة ولم يتبين منها إلا اسم الله ، وفي اليوم الرابع شرع في الرحيل إلى الحيرة ، وساروا جميعاً ومعهم أصفران ، وظلوا سائرين عدة أيام حتى قربوا من بلاد النعمان ودخلوا حدودَ أراضيه .

الفصل التاسع

كان النعمان قد بلغته أنباءَ حمزة وما فعله برجاله ورجالِ كسرى ، فغضب وأراد أن يجمع العساكر ويبعثها إلى مكة ، ولكن وزيره أشار عليه قائلا :

— إن من الصواب أن تعلِمَ كسرى بما حدث ، وتدعَ رجاله المنهزمين يسيرون اليه ويخبرونه بما كان من حمزة ، لأنك إن سرت أنت إلى مكة أثرت فتنة فى العرب لا تنقضى إلا بهلاكهم ، فالعرب لا تتخلى عن مكة ولا بد أن تدافع عنها . هذا إلى أن حمزة يعد فى الحقيقة من رجال كسرى ولا يغيب عنك ما جاء به وزير الفرس « بزرجمهر » منذ سنين ومسيره إلى بيت الله الحرام لأجل هذا الغلام وما تنبأ به من أنه سيكون له فى زمانه شأن عجيب . . .

قال النعمان لوزيره :

— لقد أصبتَ فانبعثْ بكتاب إلى الملك كسرى نشرح له فيه واقع الحال ، وننتظر حتى يصدرَ أمره بما يريد .

وبينما كان النعمان فى انتظارِ أوامر كسرى إذ فوجىء بقدوم الأمير حمزة إلى بلاده ، فاضطرب لما سمعه عنه . . وجمعَ كبارَ قومه ليستشيرهم فى الأمر فأشار بعضهم بالانتظار حتى تصل أخبار كسرى ، ورأى آخرون أنه لا بد من الدفاع والخروج لملاقاة حمزة ورجاله .

وعندما وصل الأميرُ حمزة كان جيش النعمان فى انتظاره ، والتقى الجمعان واشتدت الحربُ والطعان ، وقامت القيامةُ ، وحلَّت الندامة ، وقلت السلامة وبرز الأمير حمزة إلى النعمان وحاول النعمانُ الهرب ولكن حمزة انقض عليه ولم يمكنه من الفرار وأخذه أسيراً ، وأسلمه إلى أخيه عمر ، وتفرقت عساكرُ النعمان فى كل جهة ومكان .

دخل حمزةُ إلى مدينة « الحيرة » وجلس فى إيوان النعمان ، وجمع قومه ، وأمر أن يؤتى بالنعمان بين يديه ، فأتى به ذليلا ، وقال له حمزة :

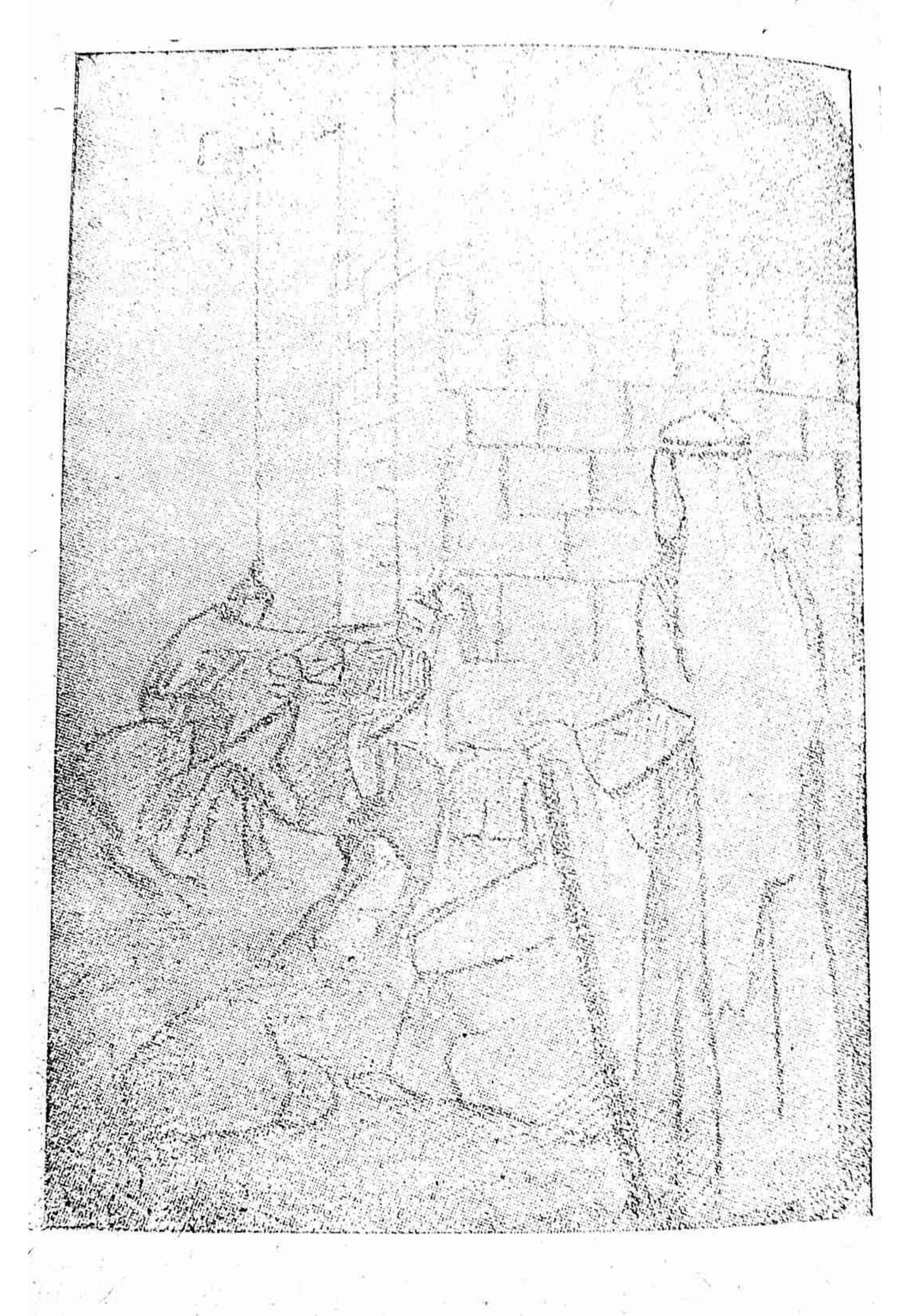
— لقد بلغنى أن أباك وأجدادك كانوا يعبدون الله ويكرمون مكة المطهرة ويأتون إليها كل عام ، ولكنك رجَعْت عما كان عليه أسلافُك وانحزت إلى كسرى ، ورحت تساعده على إذلال العرب وأخْذ أموالهم ، وهذا يكفى لقطْع رقبتك . .

عند ذلك جزع النعمان فقال متضرِّعا :

— إننى عربى الأصل من جنسِك ، وصديق لوالدك الأمير ابراهيم ، فأرجو أن تُطْلقنِى وتتخذَنِى نصيرا ومعينا .

— لقد مِلْتَ إلى دين كسرى وعبدتَ النار مثله ، فكيف أتخذُك مُعينا لى وأنت لا تعبد الله ؟

— ما فعلتُ ذلك إلا كرها وإجابة لطلب كسرى ، وأنا فى الحقيقة على دين آبائى ، ولكنى أخشى كسرى أنو شروان .



— إن كان كسرى يعترض على أحد من العرب فإنى أسير إليه وأخرب دياره وأقلبُ الإيوان على رأسه .

— إنى أعدكَ يا حمزة من هذه الساعة أن أعود إلى عبادة الله ، وأكون لك ولسائر العربِ من المخلصين .

فلما سمعَ الأميرُ حمزةَ كلامه تأثَّر به ، فنهض اليه بنفسه وفك وثاقه وسأله أن يجلس على كرسِيه وهما يتصافحان . وفرح عرب النعمان برجوع مليكهم إلى عبادةِ الله والصلح مع حمزة ، إذ لم تكن ضمائرهم مستريحة إلى عبادة النيران ولا إلى ولائهم لدولة العجم .

أقام حمزة ورجاله فى ضيافةِ النعمان وعرب الحيرة خمسة عشرة يوما قضوها فى لهو واحتفالات وأفراح ، وفى اليوم السادس عشر قال حمزةُ للنعمان :

— إنى أريد أن أذهب إلى المدائن وأنظرُ حالة كسرى أنوشروان فإن كان على الوفاق معنا سالمناه . وإن كان يخاصمنا حاربناه وأنزلنا به الويلَ والعبر .

— لا أشير عليك الآن بالمسير إلى بلاد العجم ، لأن كسرى كثيرَ الجند والأعوان ، وبلادُه واسعة جداً لا يكاد ملك من ملوك العالم يعادله فى المال والرجال ، فإذا سرنا إليه لا نضمن النجاح ، والرأى عندى أن تعود الآن إلى بلادك ، حتى يرسل إليك كسرى يستنجدك .

— يستنجدنى فى أى شىء ؟

— ألا تذكرُ الحلم الذى رآه من نحو عشرين سنة وفسره له وزيره بزرجمهر

بأن عدواً يخرج عليه من حصن خيبر ويملك المدائن فتطرد له هذا العدوَّ وتعيد إليه بلاده ؟

مرح فكر حمزة قليلا ، ثم قال :

— آه ... تذكرت .

— وعندما تذهب إليهِ إجابة لدعْوتهِ وبناءً على حاجَتهِ إليك يكون لك الاعتبارُ وعظيمُ المقامِ عنده .

— لقد أصبت بذلك ، ولابد لى من الإقامةِ فى مكة حتى يؤون الأوانُ .

الفصل العاشر

وبعد أن رحل حمزةُ ورجالهُ فكر النعمان فى موقفه من كسرى أنو شروان ، وخشى أن يعلم بصلحه مع حمزة الذى اعتدى على زجاله وطردهم من مشارف مكة وسلبهم أموالهم ، ثم استقر رأيه على أن يذهب إلى المدائن ويرى ما هناك من الأخبار .

وصل النعمانُ إلى المدائن وانتظر أياما حتى أذِن له بمقابلةِ الملك . وقف بين يدى كسرى وأظهر خضوعه وطاعته ، فأذن له بالجلوس ، وقال له :

— اعْرِضْ حاجتك يانعمان وقل ما السبب الذى دعاك إلى المجىء إلىّ دون أن أستدعيكَ .

— اعلم أيها الملك الأعظم أن فارساً من مكة قد خرج على وجاء بلادى وقتل رجالى ونهب أموالى .

اضطرب كسرى من هذا الخبر وتكدّر غاية الكدر ، وقال :

— ما اسم هذا الفارس ؟

— حمزة بن الأمير ابراهيم .

— لابد من قتله وخراب مكة .

وكان كسرى قد غاب عن ذهنه ما كان منذ نحو عشرين سنة من أمر الحلم .

وقال الوزير بُزُرْجَمِهْرُ :

ـ هناك أمر آخر يا سيدى الملك ، فقد جاء رجالك الذين كانوا مع رجال النعمان ، وأخبروا أن حمزة قتل منهم جانباً وسلبهم الأموال وأعادهم خاسرين ، وقد كتمت عنك هذا الخبر . . .

لم يدع كسرى وزيره حتى يتم كلامه ، بل قال غاضبا :

ـ ولماذا لم تطلعنى عليه فى وقته لأبعث من يأتينى بهذا الكلب العربى لأقتله على باب المدائن . . ؟

ـ أخفيت عنك ذلك لما ثبت عندى أن هذا الفارس هو من رجال الملك كسرى ومن أقرب الناس اليه وأحبهم عنده .

ـ ما معنى هذا الكلام وأيّةُ علاقة بينى وبين أجلافِ العرب ؟ من هو هذا الذى تزعم أنه من أعز الناس عندى ؟ .

ـ إنه ـ يا سيدى ـ الأسد الذى رأيته فى حلمك منذ زمان طويل وبعثتنى لأجله إلى مكة لأكتبه من قومك . وقد بلغنى أيضا أنه فعل جميلا مع جماعة من تجار الفرس ، وكان أصفران الدربندى سلبهم أموالهم ، فخلصها لهم بعد أن تغلب على أصفران وجعله من رجاله .

فلما سمع كسرى ذلك صفق من الفرح وقال :

ـ أهذا هو الذى أخبرتنى عنه أنه يخلص ملكى من عدوى الذى يخرج على بلادى ؟

ـ نعم هو يا سيدى .

وكان الوزير « بختك بن قرقيش » الذى يكره العرب يصغى إلى ذلك بكدرو امتعاض ، فقال لكسرى :

ـ لقد نسيت يا سيدى حالة العرب وما هم عليه من الهمجية وعدم الأمانة . فإذا أكرمتهم لاتأمنُ جانبهم .

اغتاظ كسرى من وزيره « ابن قرقيش » ولكنه صبر عليه لعامه أن هذا هو رأى بعض الفارسيين فى العرب ، فلم يعبأ بكلامه ولم يهتم بأن يرد عليه .

وكذلك اغتاظ النعمان من الوزير بختك ، وخرج من الديوان وهو يسأل الله فى نفسه أن يكون خلاص العرب من العجم فى وقت قريب على يد الأمير حمزة .

الفصل الحادي عشر

بلغ الملك كسرى أن « خارتين » صاحبَ حصن خيبر قد خرج بجنوده ، وعددُهم أربعمائة ألف من الفرسان المنتخبين ، ودخل حدودَ البلادِ وهو ينهبُ ويقتلُ ، وأنه يتجهُ إلى المدائنِ ليستولىَ عليها وينتزع الملكَ مِن كسرى . فاهتم لذلك غاية الاهتمام وأمر أن تجْمعَ الجيوش الكسروية للدفاع ، وعهد بتدبير ذلك إلى وزيره بُخْتُك . وبعد أن أعدت العدة قال بختك لكسرى :

— لقد نفذنا أمرك ، واجتمع لدينا نحو تسعمائة ألف فارس من الأبطال ، وهم أكثر من جيش خارتين بكثير .

— اذهب بهم إلى خارتين وحاربه على بعْدٍ من المدائن قبل أن يصل إلينا .

— ليس من الصواب يا سيدى أن نلاقيه عن بُعد من هذه المدينة ، بل أرى أن يبقى الجنود خارج المدينة وعلى أبوابها ، حتى إذا وصل دافعْنا عنها وأرجعناه بالخيبة .

استحسن كسرى هذا الرأى فوافق عليه ، ووقف الجيش يستعد للدفاع .

أما خارتين فإنه ظل يزحف إلى المدائن ، ووصل إليها بعد أن امتلك كل ما فى طريقه من البلاد الفارسية ، وأقامت عساكرُه الخيامَ خارجَ المدينة ، فلما كان

صباح اليوم التالى ركبَ خارتين فوق جوادٍ عالٍ كأنه الجمل فى الارتفاع ، وعلى عاتقه عُمدٌ من الحديد ، وتقدم فرسانهُ . وتبينه رجال الفرس . . فإذا هو بشع المنظر كبيرُ الرأس أصلع ، وعيناه مستديرتان فى وجه كبير مجعد ، ينزل شعر رأسه إلى كتفيه وإلى حدبة تعلو رقبته وتجعل قامته معوجة .

أمر بختك بن قرقيش عساكرَ الفرس بالتقدم لملاقاة خارتين ومَن معه ، وتبادل الفريقان هجومَ الآساد ، واشتعلت فيما بينهما نيران الحرب والطراد ، واهتزت من ركض خيولهما الآكام والوهاد . وكان خارتين يبدد الرجال ، ويصرع الأبطال على وجه الرمال ، وراحت فرسانه تتقدم ، وفرسان الفرس تتأخر ، واستمرت الأهوال إلى أن جاء الزوال ، ودقت طبول الانفصال ، فرجع الفريقان إلى الخيام على أشد حال من التعب والملال لا يصدق أحد منهم أنه سيرجع إلى أهله بسلام .

دخل الوزير بختك على الملك كسرى وأخبره بما جرى ، فقال كسرى :

— إنى أخاف أن ينهزم جنودُنا فى هذه المرة ويلحقَ بنا الويل والدمار ، وقد كنتُ أريدُ أن أرسل إلى الملك النعمان وأستدعى جماعة العربان لمساعدتنا فى القتال فمنعتنى ووعدتنى بالنصر .

— كن ياسيدى مطمئنا ، فإن جيوشنا كثيرة ، ولا بد أن يكون الفوز لنا ، ولا حاجة لمجىء العرب ، لأنهم إذا حضروا معنا حرباً وانتصرنا فيها ينسبون النصر إليهم ولا أحب أن يتفاخروا علينا ، بل يجب أن يبقوا على الذل والطاعة .

ولكن الوزير بزرجمهر لم يعجبه كلام بختك ، وعرف أنه لا بد من هزيمة الجيش أمام خارتين صاحب الحصن ، ولا بد من مساعدة العرب ، ولا سيما الأمير حمزة ، فهو وحده القادر على ملاقاة خارتين وقتله . وأيقن بزرجمهر أن هذه هي الفرصة لاتصال حمزة بكسرى .

قال بزرجمهر :

— إن امتناعنا عن دعوة العرب للقتال معنا ليس من الصواب ، فهم من عمالنا وأتباعنا يساعدوننا كما نحميهم ونرعاهم ، غير أن الوقت قد فات فالأوفق أن ننظر في موقف رجالنا وكيف تنجو عساكرنا من قبضة خارتين .

فقال بختك :

— إن أمر القتال منوط بي ومفروض علي ، فلا يمكن أن نتأخر ، وسننتصر ببركة النيران وعنايتها ، وعدد عساكرنا يفوق عساكر خيبر ونحن نستطيع زيادتها وإمدادها على خلاف الأعداء .

سكت كسرى ينتظر ما يكون من أمر جيشه مع الخيبريين .

وجعل خارتين يتقدم إلى الأمام ، وجنود كسرى يتأخرون ، وأيقن كسرى أن العدو لابد داخل مدينته ، فطلب من وزيره بزرجمهر أن يدبر له أمر الخلاص فقال بزرجمهر :

— ما من وسيلة لنجاتنا من هذا الطاغي ... وأرى من الصواب أن نبعث

بأولادنا وكل مايتعلق بنا إلى مدينة طهران ، ثم نلحق بهم ، وهناك ننظر فى أمر خلاصنا .

— كيف نترك المدائن للخيبريين يتملكونها وندع خارتين يجلس على عرشى ويدعو نفسه بكسرى . . ؟ !

— إن ذلك سيكون مؤقتا فسوف نعود إليها ، وسوف ترى بعينك مايكون من أمر العرب حين يتمُّ لنا النصرُ على أيديهم .

سُلِّمَتْ المدينة إلى خارتين ، فجلس فى الإيوان ، وأصدر أمره إلى رجاله وأتباعه ألا يَدْعُوهُ منذ اليوم إلا بالملك كسرى . . مالكِ العجم والعرب والديلم وسيدِ ملوك الزمان .

الفصل الثانى عشر

لما استقر كسرى أنو شروان بمدينة طهران جمع وزيريه لينظر معهما فى أمر خلاص بلادهم من خارتين صاحبِ حصنِ خيبر ، قال الوزير بختك :

ـــ تذكرت الآن كلاما كنت قد سمعته وترددت فى صحته وأيدت الحوادث ما ذهبت إليه .

فقال كسرى :

ـــ وما هو هذا الـكلام ؟

ـــ ما قاله الوزير بزرجمهر من أن رجلا من العرب يخلص بلادنا من الأعداء ويساعدك عند وقوع الأهوال ، وقد ظهر الآن أنه لم يصب فى قو وأن ما زعمه لم يقع .

ـــ صدقت ، مع أنى سمعت بهذا الرجل العربى من الملك النعمان . ثم التفت كسرى إلى بزرجمهر الذى كان صامتا يُصْغى ، فقال :

ـــ أَىْ وزيرى بزرجمهر ، أين ذلك الذى حدثتنا عنه فيما مضى ؟ فقد احتجنا إلى مساعدته ولم يأتِ لمساعدتنا مع أننا بعثنا إلى أبيه بالأموال وربيناه على حسابنا ؟

قال بزرجمهر :

— إنى ما نطقت إلا بالصواب وما قلت غيرَ الحقيقة ، إن الأمير حمزة هو الآن فى مكة بلد أبيه وأجداده ولا يعلم ما جرى لنا ، وهو ينتظر إشارة منا ليأتى ويخلص البلاد .

فقال كسرى :

— حقا نحن الذين أهملنا فى حق أنفسنا ولم نُرْسِلْ إليه حتى الآن وأرى أن تذهب على الفور إلى بلاد العرب وتجمع الجيوش منها وتأتى بذلك الفارس .

سافر بزرجمهر إلى مكة ، واستقبله أميرها ابراهيم وولده حمزة مرحبين . . .

وقال بزرجمهر :

— اعلم ياحمزة العرب أنى جئت إليك بدعوة كسرى أنو شروان إلى أن تذهب اليه وتخلص بلادَه من خارتين صاحب حصن خيبر .

وقص الوزير على حمزة ما كان من أمر خارتين وكسرى ، فلعبت النخوة العربية برأس حمزة وقال :

— وحق البيت والصفا لابد من السير إلى هذا الخيبرى وذبحه ذبح الأغنام وتشتيت عساكره ولو كانوا فى عدد الرمال .

وتأهب حمزة للرحيل وأمر رجالهَ أن يستعدوا ، وهو يكادُ يطير فرحاً وشوقاً إلى خوض المعركة ، ويقولُ فى نفسِه : لا بد أن أرىَ الفرسَ شجاعة العرب وأحملهم على الاعترافِ بأنهم أشدُّ منهم بأساً وأعلى مقاما ، وسأكون عند

حسن ظن كسرى بي . لو لم يسكن كسرى يحبنى ويثق بى لما أرسل إلى أكبر رجل فى مملكته يستنجدنى :

وركب حمزة وركب معه أخوه عمر وأصفران الدَّرَيَنْدِيُّ والفرسان الثمانمائة وعلى رأسهم عقيل قائدهم . وراح السكشاف عمر يلعب أمامهم ألعابه العجيبة . . . حمل كنانته وسهامه ولفَّ على وسطه حزاما عريضاً من الجلد ملأه بالخناجر ، وشد على رجليه قماطا من الجلد الأحمر حتى ساقيه ، ووضع على رأسه خوذة من الفولاذ مستديرة وربطها بسلسلة رقيقة من النحاس إلى تحت ذقنه . . . انطلق بأسرع من لمح البصر فغاب عن الأنظار ، ثم ظهر كما يظهر لمعان البرق ، ثم اختفى فى طرفة عين . . حتى تعجب الوزير منه وكاد لا يصدق أنه من الإنس ، وتذكر عمل أبيه وكيف ضرب أمه لتلده فى ذلك اليوم الذى ولد فيه حمزة طمعا فى المال .

وودع الأمير ابراهيم ولده حمزة وهو يوصيه بمراعاة الشرف العربى وناموس القبائل العربية ، ووصل حمزة بجيشه إلى الحيرة ، ومعه رجمهر ، واستقبلهم النعمان ، وأضافهم ثلاثة أيام كعادة العرب . وعند استئناف السير إلى فارس طلب منهم الوزير بزرجمهر أن يتجهوا معه إلى طهران حيث يجتمعون بالملك كسرى وتنضم اليهم جنوده لمحاربة خارتين وإنقاذ المدائن ، فقال له حمزة :

— وأى فضل يسكون للعرب إذا قاتلت مع العجم ؟ إذا فزنا نسبوا الفوز إلى أنفسهم وتسكبروا علينا كعادتهم . . . إنى أريد أن أذهب إلى خارتين

بجماعتى الذين جئت بهم من مكة فقط ، وإننا بمعونة الله تعالى نقدر على خارتين وقومه وإبادتهم .

— لا تسلك هذا السبيل ياولدى ، إن خارتين فارس كبير ومعه من أبطال خيبر أربعمائة ألف فارس ، وقد تغلب بهم على جيوش كسرى وهى تضم تسعمائة ألف نفس ، فأرى من الصواب أن تسيروا إلى كسرى وتقاتلوا معا ولا تضيعوا الفرصة .

— أقسم بالله العظيم ، رب زمزم والحطيم ، إنى لا أقاتل مع العجم ، ولا أحب أن يضيع مجهود العرب مع تكبر الفرس وتعاظمهم .

ابتسم الوزير ، وقال لحمزة :

— صدقت ياولدى ، وإنك لقادر على ما تقول ، غير أنى أريد أن تصحب معك الملك النعمان برجاله . ولا بأس عليك فى ذلك ، إذ تكون القائد والجميع تحت إمرتك ، افعل هذا من أجل خاطرى .

— أفعلُ هذا لا لكونى محتاجا إليه ، ولكن لأثبتَ أن العرب أهلُ شجاعة ونجدة ولأكسب لهم فضلَ التقدم على غيرهم ممن يتعاظمون عليهم ، ولأرفع الناموس العربى القائم على الشرف وأمنعَ عبدة النار من الاختلاط بعبدة الله .

قال بزرجمهر فى نفسه : الحق معه ، ومن كان مثله فلا خوف عليه لأنه يعبد الله ويطيعه ومن يحب الله لا يتركه ولا يتخلى عنه .

الفصل الثالث عشر

ركب الأمير حمزة فى مقدمة نحو خمسين الف فارس من العرب ، وإلى جانبه الملك النعمان وإلى الجانب الآخر أصفران الدربندى ، واتجهوا إلى المدائن وراح حمزة يتخيل ما سيكون له من المنزلة عند كسرى ، وما أعطاه الله من الشجاعة التى فاق بها أقرانه وأهل زمانه ، ثم رفع صوته وهو يترنم بهذه الأبيات :

سوف تلقى منى العداةُ وبالا   وترى فى حربى أموراً ثقالا
فأخوض الوغى بسيف صقيل   وبرمح يقصر الآجالا
وأبيد الطغاة بالسيف قسرا   وأسر العفاة أنساً ومالا

وأعجب الملك النعمان بفصاحته ، كما أعجب من قبل بشجاعته .

وأشرف الجيش العربى على المدائن ، فأشار النعمان بالنزول وإقامة الخيام فى مكان قريب ، وكتب الأمير حمزة إلى خارتين يتهدده ويطلب منه الخروج إلى ملاقاته وإلا دخل عليه الايوان وقتله فيه .

دخل عمر الكشاف بكتاب الأمير حمزة على خارتين ، فأخذ منه الكتاب وقرأه فاضطرب ثم أرغى وأزبد ، وقال لعمر :

— من هذا الذى يقال له حمزة . . الذى تجاسر وكتب مثل هذا الكتاب ؟

— إن كنت لا تعرفه فستعرفه إذا اجتمعتَ به فى ساحة الميدان ، فاكتب إليه الجواب لأنه فى الانتظار .

— إنه لا يستحق منى أن أكتب إليه . وسأخرج اليه فى الغد لقتله وقتل النعمان ، وسأقيم من قِبلى حاكما على العرب .

وفى الصباح فتحت أبواب المدينة فتدفق منها الجنود أفواجا . يقيمون خيامهم مقابل خيام العرب وقد داخل الرعب من كثرتها الملك النعمان ومن معه ، أما الأمير حمزة فقد جمع رجاله الأخصاء وأمرهم أن ينقضوا فى كل مكان ينقض هو فيه ، فيحموا ظهره ويقاتلوا كقتاله ، وقال لهم :

— اعلموا أن المعول فى هذه المعمعة عليكم ، والرجاء معلق بكم ، فاذا تأخرتم أنتم تأخر جنود النعمان ، وإذا تقدمتم تقدموا واشتدت ظهورهم .

فقال له أصفران الدربندى :

— إنى أعلم أننا — وحدنا — نكفى لقتال هؤلاء الخيبريين مهما يكثر عددهم ، ولاحاجة بنا إلى قوم النعمان ، وسترى بعينيك ما يكون منا وإذا شئته فاسمح لى أن أقاتلَ هذا اليوم وحدى برجالى ، لكى يعلم النعمان أن أربعين من رجالك لاقوا أربعمائة وعادوا منصورين .

— إنى أعلم أنك تَقْدِرُ على ما تقول . . .

ولم يتم حمزة كلامه ، فقد رأى جنود خارتين يصيحون ويهجمون كأنهم السيل عندما تشتد الرياح وسرعان ماقابلهم العربُ مثل أسود البطاح ، وحمل الأمير حمزة بما أعطى من قوة القلب والجنان ، واختلط الخيبريون بالعرب واشتد لهيب

الحرب واضطرب ، وعلا الصياح من كل فارس ، وهمهم كل بطل مداهم ، فأزهقَتْ النفوس ، وقُطِعَتْ الرؤوس ، وانقض الأمير حمزة على الخيبريين انقضاض الصاعقة ، وأعمل طعناتِه الماحقة ، ومن خلفه رجاله الامجاد يزأرون كما تزأر الآساد ، وينتزعون الأرواح من الأجساد .

ودامت الحرب على تلك الحال ، إلى أن قرب الزوال فدقت طبولُ الانفصالِ ، ورجع حمزة برجاله والدماء التى تناثرت عليه تغطى جسده وثيابه ، فتلقاه الملك النعمان بالأحضان وقبله بين عينيه وهو يشكر له ويثنى عليه وقال له :

— الحقيقة أنك فارس هذا الزمان وحامى حمى العربان .

— إنى أقاتل لإحياء شرف العرب ورفع شأنهم . وكان بودى أن ألقى خارتين فأقضى عليه ، لأن آمال قومه تتعلق به ، فلو بارزته وقتلته تفرق قومه .

— الأوفق أن تبقى الحرب على ما هى عليه ، وان تمضى إلا أيام ويترك هذه الديار . أما مبارَزَتُكَ لخارتين فقد تأتى بما لا نريد فينقلب الأمر علينا .

— إنك لاتزال خائفا خارتين . ولكن لتعلم أنه لم يبق من عمره غير هذه الليلة ، فقد يمسى تحت حوافر الخيل ، فكن مطمئن البال .

وفى الصياح نهض حمزة من فراشه إلى جواده ، وسلاحه ، وخرج إلى الميدان يتبعه رجاله وجموع العرب . صال وجال ، ولعب على أربعة أركان المجال ، حتى تحيرت منه عقول الرجال ، واندهشت من أعماله الفرسانُ والأبطالُ .

وفيما هو على تلك الحال برز له خارتين كأنه الغول فى قبح منظره وطول شعره وأظافره ، وصاح بحمزة :

— أنت هو . . حمزة الذى يقال إنه سيقتل خارتين ويبدد رجاله . . ؟

— نعم أنا هو . . وسيشهد اليوم هذا الميدان مصرعك وانقضاء أجلك .

لعب الغيظ بقلب خارتين ، فامتشق حسامه وضرب به حمزة ، فالتقاه حمزة بسيفه وأخذ معه فى القتال والضرب بالسيوف الصقال . وشخصت اليهما الأبصار ، وأحدقت بهما أعين النظار ، وعلا فوقهما الغبار . تارة يفترقان ، وتارة يجتمعان ، كأنهما جبلان يلتطمان ، ودامت بينهما الحال على هذا الشأن نحو خمس ساعات من الزمان . وقد خافت العرب على حمزة من خارتين لما رأت ثباته كالجبال ، وهديره كفحول الجمال ، لأن حمزة صغير السن لا تجارب له فى ميادين القتال ، ودعت الله المتعال أن يخلصه من هذه الحال .

وبغتة سمعوا صيحة عظيمة رددتها السهول ، وجفلت منها الخيول . . وكان الصائح الأمير حمزة وقد انقض على خصمه وضربه بسيفه على عاتقه الأيمن فشقه ، وخرج السيف من تحت أبطه الأيسر . فمال خارتين عن ظهر جواده وارتمى على الأرض يضطرب فى دمه وقد ذهبت روحه من جسده .

عند ذاك صاحت العرب صيحة الفوز وحمل فرسانهم على الأعداء حملة واحدة . وكان هؤلاء قد ضعفت عزائمهم عندما رأوا قائدهم يصرع ، فأيقنوا بالهلاك . ولكنهم راحوا يقاتلون يائسين حتى يستطيعوا الفرار ، وخطر لهم

أن يلجأوا إلى المدينة للخلاص من قتال العرب ولكن أهل المدائن كانوا قد تجمعوا وحملوا السلاح ووقفوا عند الأبواب ، ووقع الخيبريون بين عدوين ، فقتل منهم من قتل ، وهرب منهم من استطاع الهرب .

ولما انتهت المعركة عادت العرب إلى الخيام للراحة والاستجمام . وقال النعمان لحمزة وقد بهره ما شاهده من فعاله فى الميدان :

-- انك فارس عظيم لم أشهد له مثيلا ، ولا بد أن كسرى يجعل لك عنده أرفع منزلة وأعلى مقام .

— إنى لا أطلب شيئاً لنفسى ولا أريد منزلة عند كسرى ، فانا قادر على أن أنشىء الشرف لنفسى ، إنما أريد منه أن يعترف بفضل العرب وبسالتهم ، فاذا لم يقر بذلك من نفسه ألزمته به بقوة السيف وما أعطانى الله من شدة البأس .

الفصل الرابع عشر

دخل العرب مدينة المدائن ، وناموا بقصر الملك كسرى ، وفى الصباح قصد حمزة والنعمان إلى الإيوان ، وشاهدا الأموال التى جمعها خارتين وأودعها الخزائن ، فاذا هى شىء كثير لا يكاد يُحصَى ، فقال النعمان :

— إن هذا المال من حقنا ، إنه مال خارتين وقد قاتلناه فأصبح ماله مباحا لنا .

فقال حمزة :

— لا ، إنه الآن ملك كسرى ، لأننا نقاتل عنه ، وكل ما يقع بأيدينا فهو له ، فان أهدى إلينا كان خيراً ، وإلا فنحن فى غنى عنه . لابد أن يعلم الفرس أن العرب عفيفة نفوسهم وليسوا لصوصا وطماعين كما يقال عنهم .

* * *

تناول الملك كسرى كتاب حمزة ، ودفعه إلى وزيره بزرجمهر ليقرأه على مسمع من الحاضرين فى مجلسه من كبار قومه ، وقرأ بزرجمهر :

« من حمزة البهلوان عابد الرحمن ومبيد أهل الكفر والطغيان ورافع شرف (العربان) ، إلى الملك كسرى أنو شروان صاحب التاج والإيوان .

« لقد ربيتُ على نعمتك ونشأت تحت رعايتك ، فكان من الواجب على خدمتك والدفاع عن بلادك ، ولهذا جئتُ بأمر وزيرك بزرجمهر إلى المدائن.

والتقيت بعدوك الخبيث خارتين ، فبارزته فى الميدان ، وفى ساعات قليلة أنهيت أمره وبددت شملَ رجاله ، ودخلت المدينة وقد أجليت الأعداء عنها ، فذهبوا تاركين أموالهم وغنائمهم . وإنى باق فى المدينة حتى تأتى وتتسلم كرسيك وأموال عدوك ، وإليك منى السلام » .

لما سمع الملك كسرى ذلك الكتاب فرح بالأمير حمزة ، وكتب له رداً يشكره فيه ويثنى على فعله ، ويقول له إنه فى الطريق إليه .

وذات يوم قبل أن يصل كسرى إلى المدائن ، دخل إلى الإيوان حمزة والنعمان وأصفران الدربندى وعقيل أمير الثمانمائة الفارس ، فوجدوا كرسى كسرى يتلألأ بلمعان البرق ، إذ كان مصنوعاً من الذهب الخالص ، منقوشاً بأبدع ما صنعه الفرس ، فقال النعمان لحمزة :

— اجلس على هذا الكرسى ، فأنت أحق به .

— إنى لا أطمع فى مثل هذا ، ولا أريد أن أشغل نفسى بمثله عن خدمة العرب والحياة بينهم ، غير أنى أجلس فقط على سبيل التجربة لأرى كيف يكون حال الجالس على هذا الكرسى .

وجلس حمزة على كرسى كسرى فغرق إلى وسطه . . لأنه كان مشدوداً بالمخمل ومحشواً بريش النعام ، فشعر بليونته ، فقال :

— هنيئاً لكسرى جلوسه على كرسيه الناعم .

فقال النعمان :

— هلا جربتَ التاجَ على رأسك لنرى كم تزيد على كسرى بهاء وعظمة .

— لا أحب أن أجرب هذا ، فلا يلبس التاج إلا من دخل خطة الملوك ، وأنا — كما قلت — غيرُ مشغول بهذا الأمر ، وما أنا إلا بدوىٌّ ابن أمير أقيم على قبيلة صغيرة .

— إننا جميعا نعترف بشرفك وعلو حسبك ، فأنت ابنُ أمير مكة المكرمة أعلى العرب شرفا ، وما الملوك بأعلى منك منزلة ، إلى جانب ما حققت من النصر العظيم ، عما قليل يجىء كسرى أنو شروان أكبر ملوك العالم ويعود إلى عرشه بفضلك ، فيعرف لك قدرك ومعروفك .

ورأى حمزة والنعمان ومن معهما من العرب أن يرجعوا إلى خيامهم خارج المدينة ويقيموا فيها حتى يأتى كسرى ويدعوهم إليه .

وجاءت الأخبار بقدوم كسرى ، فهرع سكان المدينة لاستقباله وتهنئته بعودته سالماً إلى عاصمة ملكه . وما إن دخلها وجلس فى الإيوان حتى سأل عن حمزة ، فقال له بزرجمهر إنه لم يدخل المدينة إلا عدة مرات ، كان يأتى متفرجا ثم يعود ، وقد أبقى على أموال خارتين فى الخزائن لم يقرب شيئا منها حتى تعود وتتصرف فيها .

فضحك بختك ساخراً وقال :

— من أين للعرب مثل هذه العفة وهم مشهورون بالسلب والنهب ويعيشون من السرقات والخطف . . ؟

فقال له بزر جمهر :

ـ لا تقل ذلك عن العرب إن عملهم لا يُعَدّ من قبيل السرقة إذا أغار بعضهم على بعض وا كتسب ماله بقوة السيف ، على أنهم معروفون بالمروءة ولا يعتدون إلا على من يناصبهم العداء ، ويكرمون الضيف ، ويجيرون الضعيف وكل من يستجير بهم . وما عمل الأمير حمزة معنا إلا شاهد على ذلك .

ثم قال كسرى لبزرجمهر :

ـ لا أريد أن أصبر أكثر من ذلك — أيها الوزير الأمين — عن مشاهدة الأمير حمزة ، فاذهب إليه الآن وأبلغه دعوتى إلى الحضور .

وقال لبختك :

ـ ومن الواجب عليك يا بختك أن تستقبل الأمير حمزة على باب المدينة بالملابس الرسمية وأن تصف العساكر على الطرقات فى غاية من الانتظام .

فأجاب بختك بالطاعة وهو كاره فى نفسه ، لأنه كان يبغض العرب ويعمل على إذلالهم وتحقيرهم .

الفصل الخامس عشر

ذهب بزرجمهر إلى خيام العرب وأبلغ حمزة دعوة كسرى ، فركب هو ومن معه وتقدموا إلى أبواب المدينة ، واستقبلهم الوزير بختك مظهرا ترحيبه وهو متكدر ، وقد ترجل النعمان وبزرجمهر كما ترجل بختك ، وتصافحوا ، وفعل حمزة مثلهم وهو لا يعرف بختك ، ولما سأل عنه النعمان قال له إنه الوزير الثاني لكسرى ، ولم يسترح حمزة إليه لأنه لاحظ تكلفه وما يبدو من خبثه .

وكان من العادة ألا يدخل أحد على كسرى بسلاحه ، بل ينزعه فى الخارج ، ويحفظه الحاجب حتى يخرج احتراما للملك وحرصاً على حياته من أن يغدر به غادر ، فلما وصل حمزة إلى باب الإيوان أراد أن يدخل بسلاحه ، فمد الوزير بختك يده لينزع منه السيف ، فجفل حمزة ووضع يده على سيفه وداخله الشك فى نيات الفرس .. لعلهم يريدون تجريده من سلاحه ليبطشوا به ، ألم يقل له النعمان إنهم يكرهون العرب ؟ ومد بختك يده مرة ثانية بطريقة متعالية وهو يشير إليه أن يسلم السيف ، فغضب حمزة وصاح به أن يتنحى عن طريقه ليدخل بسيفه ولكن بختك اعترضه بوقاحة . . فما كان من حمزة إلا أن رفع يده وهوى بها على خد الوزير . . وصرخ بختك وسال الدم من فمه . . ووضع يده على خده وفمه ، ودخل متألما متوجعاً ، ونظر حمزة إلى النعمان فرآه قد نزع سيفه ، فصاح به :

— تقلد سيفك : فإن الفرس يقصدون بنا شراً .

— إن هذا من عاداتهم ، لا يدخل أحد على الملك بسلاحه .

— أنا لاأعرف هذه العادات ، وليس بيني وبين كسرى اتفاق عليها ، فإن أعجبه أن أدخل بسيفي دخلت ، وإلا رجعت من حيث أتيت .

وسمع كسرى من الداخل الصياح ، ورأى وزيره بختك على تلك الحالة ، فانبهر وخاف أن يكون أحد أغضب حمزة ، فسأل عن الخبر فقيل له إن حمزة لا يدخل إلا بسيفه فالتفت إلى وزيره بزرجمهر وقال له :

— أسرع وأدخله بسلاحه هو ومن معه .

— دخل حمزة على كسرى ، فنهض له قليلا عن عرشه ، وصافحه وطلب منه الجلوس إلى جانبه ، فجلس وقال :

— لا تؤاخذني ياسيدى الملك على ما بدر مني للوزير بختك ، فقد رأيته يحاول إهانتي .

— لا بأس أيها الأمير ، وهو لايقصد إهانتك إنما هى عادة عندنا .

— نحن لانعرف هذه العادة .

— لا بأس ، لا بأس .

وجرى الحديث فى مودة ، وساد بين كسرى وحمزة روح الصفاء والصداقة ، وأمر كسرى أن تُمدَّ الموائد . ودُعِيَ إليها الأمير حمزة ورجاله وأعيان الفرس فنهضوا إليها يتقدمهم الملك كسرى . ونظر حمزة إلى ما على الموائد فوجد صحوناً

من الذهب تضىء مثل الكواكب وعليها من المآكل الفاخرة مالم يذقه قط ، وعند كل صحن فوطة من الحرير المزركش وملعقة وشوكة من الذهب ، ولما جلس الفارسيون إلى المائدة أخذ كل واحد منهم ملعقةً وشوكة وجعل يأكل ، وظل حمزة ساكناً لا يمد يده إلى المائدة ، فسأله كسرى لماذا لم يأكل ، فقال له :

— إنى ربيت على عادة العرب ، ونحن نأكل بأيدينا فان شئتم أكلنا كما تعودنا .

— لا بأس ، فانى أعرف أن البدو يأكلون بأيديهم ، وكل إنسان يأكل بالطريقة التى اعتادها .

وبعد الطعام أمر الملك كسرى أن تقدم الهدايا إلى كل واحد من العرب ، ثم عرض عليهم كسرى أن يناموا فى أحد قصوره بالمدينة ، ولكن حمزة قال له :

— إننا لا نرغب أن ننام إلا فى خيامنا ، فهى أفضل عندنا من القصور الشامخة .

وعندما وصلوا إلى خيامهم قال النعمان لحمزة :

— إنى سررت اليوم جدا ، لأن كسرى غير معاملته للعرب وأبدى لك ما يرفع من قدرهم ، على عكس ما كان ، إذ كنت أحضر كل عام ، فأقابل بغير اكتراث، بل بإهانة فى بعض الأحيان لا من كسرى فقط ، بل كذلك من قومه .

— لا بد أن يتغير الحال ، فعامل العجم نفس المعاملة التى كانوا يعاملون بها العرب.

بل الوزير بختك [illegible] حمزة [illegible] وهو السبب
فى هذه الأحداث

[illegible] حمزة [illegible] العرب

تمثيل

الفصل السادس عشر

كان عمر الكشاف يقف عند باب خيمة حمزة وقد مضى هزيع من الليل ، عندما لاح له شبح يتقدم نحو الخيمة ، فانقض عليه كالبرق وقبض على عنقه وقال له :

— من أنت ؟

— اتركني فإني عربي مثلك .

— ولكن لبسك لبس الفرس .

إني خادم عند سيدتي « مهردكار » بنت كسرى أنو شروان ، وقد دعتني هذه الليلة وأعطتني كتاباً لسيدي الأمير حمزة ، وأمرتني أن أقدمه إليه وأجيء لها بالجواب .

— أعطني الكتاب وانتظرني .

فأعطاه الكتاب وخاتماً من ذهب عليه فص من الماس هدية من مهردكار إلى الأمير حمزة . ودخل عمر على حمزة وأيقظه ، فقال له :

— ماذا جرى ؟ ولماذا جئت إليّ في مثل هذا الوقت ؟

— ليس الآن وقت النوم فانهض واستيقظ .

— ماذا تعنى ؟ هل وقع أمر مكدر ؟

— لا ، بل وقع أمرٌ مفرح جدا . جاء رسول من قبل مهردكار بنت الملك كسرى يحمل كتابا لك وخاتما ثمينا ، وهو ينتظر فى الخارج ليأخذ الجواب .

خفق قلبُ حمزة وشعر بشعور غريب عندما سمع اسمَ مهردكار ولم يكن رآها ولاسمع بها . وفى الحال نهض من فراشه وتناولَ الكتابَ وأدناه من المصباح وقرأه ، فرآه مكتوبا بالخط العربى . عَبَّرَتْ له فيه عن حبها له ، وقالت إنها سمعت عن أعماله وبسالته وهى فى طهران ، فاشتاقت إلى رؤيته ، ولما حضرت مع أبيها إلى المدائن نزلت فى قصرها المقابل للايوان وسمعت من قهرمانتها أنه سيأتى لمقابلة الملك فى الإيوان ففرحت جداً وقالت فى نفسها لابد لِى من أن أرى هذا الذى فعل معنا الجميلَ وأعاد إلينا ملكنا وقتل عدوَّنا ، وجلست إلى شباك مطل على باب الايوان ، فرأته كالبدر إشراقا وبهاءً والأسدِ بسالةً ، ولاحظت أنه أصغرُ مَنْ معه سنا ، فشعرت بانعطاف قلبها إليه ، واتجهت أنظارُها نحوه ، وباحت للقهرمانة بسر قلبها ، وقالت لها : إنى أريد أن أرمى بنفسى على هذا الأمير العربى الذى أراه ، إلى أن قالت « وإنى أعدُكَ من هذه الساعة أن أبقى على حبك إلى الأبد لاأختارُ عنك بديلا ولاأرضى لى سواكَ محباً، وإنى أريد أَتدَيَّنَ بدين الله الذى تعبده أنت وأكونُ زوجة لك».

ولما فرغ الأمير حمزةُ من قراءةِ كتاب مهردكار أحس بحبها يغزو قلبَهُ ، وازدحمت على رأسه الأفكارُ ، وتعجب كيف تدعوه هذه الفتاةُ إلى حبها

ومعاهدتها وهى بنتُ ملك عظيم يستولى على جانب كبيرمن الأرض ، وهو بدوى لايملك مالًا ولا قُصورا . . نعم إنه قادرٌ بسيفه وقوة جنانه على أن يحقق لها ماتريد وما يناسبها ، ولكنه لايحكم على المستقبل ولا يدرى ما تأتى به الحوادث .

فلما رآه عمر على تلك الحالة قال له :

ــ لماذا تتأخرُ فى كتابة الجواب ؟ هل تترددُ فى القبول . . ؟ إنها بنت الملك كسرى . . . أىُّ شرف أكبر من هذا ؟

ــ ويلك يا وجه القرد ! إنى مرتاب فى أمرها . . .

ــ وما وجه ارتيابك ؟

ــ أخشى أن تكون قبيحةَ المنظرِ أو كبيرةَ السن . . وأن أعطيها كلمة وأعاهدَها على الحب ، ثم أراها فلا أجدُها موافقةً لما أحب ، فأضطر إلى الرجوع عن قولى ، ولا أحبُّ ذلك .

ــ وماذا تريد ؟

ــ أريد أن أراها أولا وأعرف آدابَها ومعارفها .

ــ يمكن أن نعرف شيئا عن ذلك من الملك النعمان .

أتريد أن تفضَحنا عند العرب . . ؟

ــ دع هذا لى ، فلن يعرفَه أحدٌ .

وخرج عمر إلى رسول مهردكار وقال له :

— إن مولاى مسرورٌ من كتاب سيدتك وشاكر لها هديتها ولكنه الآن ليس عنده دواة وقلم وقرطاس ليكتبَ لها الجوابَ ، وسيكتب لها فى وقت آخر ، فقال لها إن الأمر على ما تحب وتشتهى .

وفى الصباح اجتمع حمزة بالنعمان ، وكان عمر واقفاً إلى جوار حمزة فقال عمر للنعمان :

— هل لكسرى أولاد ؟ وهل هم مثله فى الرقة والأدب ؟

— له ثلاثةٌ أبناء ذكور ، أكبرهمُ مزتاج ، والثانى فروخ والثالث خرسف ، أما من جهة صفاتهم فهم مختلفو الأطوار ، وحتى الآن لم يظهر منهم شىء .

ظل حمزةُ ساكتاً مستريحا إلى طريقةِ عمرَ فى استدراج النعمانِ ، فتابع عمر حديثه :

— إننا نريد أن نعرفَ أحوالَ كسرى وأحوالَ بلاده وأسرته وهل عنده غير هؤلاء الأولاد الثلاثة . . ؟

— له عدةُ بناتٍ ، ولكنى لا أعرف أسماءهن جميعا ، والذى أعرفه هو المشهور عن بنته الصغيرة ، واسمها مهردكار ومعناها بلغة العرب شمس الدنيا ، وهى أجمل فتاة فى العجم وفى العرب . وقد طلبها ملوكٌ وأمراء وأبناء وزراء ،

لكنها لم توافق على أحد منهم ، وأبوها يحبها جداً ، وقد خصص لها الأساتذة والمعلمين ، حتى بلغت فى العلم والمعرفة مستوى أحسن الرجال وأذكاهم .

— لابد أنها تقدمت فى العمر حتى وصلت إلى هذا المستوى من العلم والشهرة، فما سنها تقريبا ؟

ولاحظ النعمانُ أن حمزة مصغ إلى الحديث باهتمام وانتباه ، وقال جوابا عن سؤال عمر :.

إنها لم تتعد الرابعةَ عشرةَ، وقد تعلمت فى وقت قصير لشدة ذكائها، فى خمس سنوات تعلمتْ عدةَ لغات وعلوم نافعة ، عربية وفارسية .

ما الشيء الذي رآه عمر في [illegible] فصرف عمر [illegible]
لماذا لم يكن [illegible]
كيف وصل عمر إلى [illegible]

الفصل السابع عشر

انشغل قلبُ الأمير حمزة بحب مهردكار ، وأصبح شاردَ القلبِ يفكر بالليل والنهار ، فقال له عمر :

— ألم تسمع يا أخى ما قاله عنها النعمان ؟ وإنى أراها موافقةً من كل وجه أسأل الله أن يجمعك بها وتصبح زوجة لك .

— دع عنك هذا الكلام ، أليس من الصواب ألا نفكر فى شىء بعيد المنال .

— ولماذا هو بعيد المنال ؟

— أرى قبل الدخول فى هذا الشأن أن ننظر فى العواقب، إذا امتنع كسرى عن تزويجى ابنته أو حالت أمورٌ أخرى بينى وبينها فسأضطر إلى تجريد سيفى وقتلِ كسرى أو أىّ شخص آخرَ يعترض طريقى إليها .

— إن كسرى يحبك ولا يمتنع عن أمر تريده .

— حقا هو يحبنى ، ولكنه لا يرضى أن يزوجَ ابنتَه من عربى ، وهم يكرهون العرب ويحطون من قدرهم .

— طيب ، أليست هى تحبك وراغبةً فى زواجك ، إذن فنأخذها بالقوة إذا رفض أبوها ، وإذا شئت دخلتَ قصرَها وحملتها منه إلى أى مكان تريد .

– هذا لا أفعله قط ولا أريده ، كيف أسرق بنت كسرى وقد أصفانى مودته وصرنا صديقين ؟

وانصرف عمر إلى بعض شأنه ، ورجع بعد برهة فوجد رسول مهردكار قد جاء بطعام من عندها لحمزة وقال إنها تسلم عليه وتسأله لماذا لم يحضر اليوم إلى إيوان أبيها ، فقد كانت تنتظر فى النافذة لتراه فقال له عمر إنه سيذهب غداً . ثم دخل بالطعام على أخيه حمزة ووضعه بين يديه ، وفتح العلبة ، فاذا هو طعام فاخر ساخن تفوح منه روائح تسيل اللعاب .

نظر حمزة إلى الطعام ، وسمع من عمر ماقاله الرسول . وقال :

– لا شك أن الفتاة متعلقة بى وليس من المروءة أن أتخلى عنها ، وإنى أستعين بالله على نيل المراد وتذليل مايقف فى طريقنا من الصعوبات .

لبس الأمير حمزة أفخر ثيابه وتقلد سلاحه وركب جواده ، واتجه إلى المدينة ، هو والنعمان وأصفران الدربندى ، ولما قرب من الإيوان رفع نظره إلى أعلى القصر المقابل ، وقلبه يحدثه أنها لابد واقفة أمام النافذة . وفعلا كانت هناك ، كأنها البدر يتلألأ فى السماء ، لابسة ثوباً أصفر عليه عروق سوداء ، وعليها من الحلى والجواهر مايزيد إشراق جمالها ، وعلى رأسها إكليل من الزهر الأبيض فوق إكليل من الماس والجوهر يلمع كأنه الكوكب فى الليلة الظلماء . وعندما وقع نظر حمزة عليها أشارت اليه بالسلام وحيته برأسها تحية لطيفة ، فأجابها برفع يده إلى رأسه فى حركة كأنه يصلح خوذته ، كيلا يلحظ أحد . وأحست هى

كأنها تريد أن تُلقى نفسها عليه من فوق ، ولكنها ضبطت نفسها وهى فى غيبوبة من الفرح والسرور .

دخل حمزة ومن معه إلى كسرى ، فسلم عليه ، ورحب كسرى به وأشار إليه ليجلس إلى جانبه . وقد زاد فرحُ حمزة بهذا التكريم من كسرى ، واعتقد أن هذا أدعى إلى نيل مراده عندما تحين الفرصة لمفاتحته بخطبة ابنته ، وكان الوزير بختك بن قرقيش حاضرا ، ولا يزال يتألم من صفعة حمزة ،فشعر بالغيظ من تقريب الملك له واحترامه إياه .

وبعد السمر والمؤانسة نهض حمزة ومن معه عائدين إلى خيامهم ، وقدطلب منه كسرى ألا يغيب عنه وأن يجىء إلى زيارته كلَّ يوم وعند الانصراف أمام الإيوان لمح مهردكار واقفةً فى النافذة ، فحياها باشارة كلمح البصر وهو يقفز على ظهر جواده .

قال له عمر وقد جلسا وحدهما فى الخيمة :

ــ لقد رأيتُ مهردكار ياأخى فأعجبتْنى جداً ، وعرفت أنها تليق بك وتليق بها ، وهى كالبدر جمالا والغصنَ قداً واعتدالا ، فأسأل الله أن يهنيك بها ولا يحرمك منها .

ــ إنى عرفت أنها كما قلت ، لكنى ما زلت أخشى أن يتغيرَ عَلَىَّ كسرى إذا ما خطبتها منه ويقع بينى وبينه خلافٌ ، فأضطر أن أحصلَ عليها بقوة السيف، الأمر الذى لا أريده ولا أظنها هى أيضا تريده :

ـ كيف يمنع كسرى عنك ابنته وأنت الذى أرجعت بلاده اليه ؟ أنه على ما أظن ـ لا يجحد معروفك بل يقدره حق قدره ولا يبخل عليك بابنته .

ـ إذا صح هذا ياعمر فان هناك خطرا آخر .. هو ذلك الوزير ابن قرقيش.. إنه إذا رأى فرصة سانحة لهلاكى فلن يتردد فى انتهازها .

وقطع الحديثَ وصولُ الرسول من قبل مهردكار الذى أقبل ومعه فاخرُ الطعام والحلوى ، وقال لحمزة :

ـ سيدتى تهديك السلام وترجو منك مداومةَ الحضور إلى أبيها لتراك كل يوم ، فهى لاتقدر على فراقك يوماً واحداً .

ـ بلغها سلامى وأخبرها أن مابى أشد مما بها وأن قلبى تعلَّق بحبها وأنى أريد أن أكون دائماً قريبا منها .

الفصل الثامن عشر

صار الأمير حمزة يتردد على كسرى بالإيوان ، فيمتع ناظريه برؤية مهردكار، ويبادلها التحية بالإشارة الخفية ، ويجالس كسرى ويسمر معه فى مودة وصفاء ، إلى أن حدث ذات يوم أن دخل عليه أخوه عمر وقال له :

ـــ على الباب رجلٌ فارسىٌ يتكلم العربية ، أخبرنى أنه جاء من قبل بختك ابن قرقيش ليعرض عليك أمراً فيه خيرٌ لكَ .

ـــ ذلك غير معقول ، ولا بد أن فى الأمر سراً ، وعلى أى حال دع الرجل يدخل واحترس منه . ودخل الرجل وقال لحمزة :

ـــ إننى ياسيدى رسولُ الوزير بختك بن قرقيش أرسلنى إليك بكلام ، فاذا أعجبك وافقت عليه وإلا فالأمر لك .

ـــ قل فإنى أسمع لك .

ـــ أمرنى أن أقول لك : إنك تنظر إليه بعين العداوة مع أنه يرغب فى مصادقتك رغم أنك اعتديت عليه وأهنته أمام أعيان الفرس وقد زادت رغبته فى صداقتك لما رأى أن الملك يحبك ويحترمك ، ولكى يبرهن لك على صدقه وإخلاصه كلفنى أن أعرض عليك أمر جواد عظيم موجود عند كسرى أنو شروان اسمه « الأصفران » لايوجد له نظير فى هذا الزمان ، فاذا ملكتَ هذا الجواد زت على كل فارس وبطل ، ونلت ما تتمناه .

فلما سمع حمزة هذا الكلام تعلق بالجواد ، رغم يقينه من أن بختك لا يقصد خيراً ، فقال للرجل :

— بلغ مولاك سلامى وشكرى وقل له إننى سأطلب هذا الجواد غداً من كسرى ..

— سأفعل يامولاى ولكنى أرجو ألا تخبر كسرى أنك علمتَ بشأن الجواد من بختك ، إلا بعد نيلك إياه وتجريبه فى الميدان .

— لك ذلك ..

وكان بختك منذ ضَرَبهُ حمزة يفكر فى طريقة لهلاكه ، حتى خطر له أمر هذا الجواد الذى أهدى إلى كسرى من بلاد الروم منذ عشرين سنة ، وكان مهراً صغيراً ، فعين له من يربيه ويخدمه فلما كبر أراد أن يجربه ، فأمر أحد فرسانه بركوبه ، فما اعتلى الفارس ظهره حتى ضرب الأرض برجليه فألقى به تحت أقدامه ورفسه فى قلبه فأرداه . وأراد كسرى قتل الجواد ، ولكن الفرسان والأعيان أشاروا بالإبقاء عليه لأنه جواد عظيم ، وإذا كان هذا الفارس لم يثبت على ظهره فغيره يثبت .

وتقدم من كسرى فارس عنيد اسمه « رستم البهلوان » وهو بهلوان بلاد العجم وفارس فرسان الديلم ، وقال له :

— هب لى هذا الجواد ، فأنا قادر على ركوبه وإخضاعه .

— وهبتك إياه وأنا برىء من دمك ..

وهم رستم بركوب الجواد ، فضربه بقوائمه ضربة ألقته صريعا على الأرض..
وتكاثر الناس على الجواد وأحاطوا به وربطوه بالحبال وقادوه إلى اصطبل
خاص . وخافه الفرسان ، فلم يجرؤ أحد منهم على ركوبه .

ولما عاد الرسول إلى بختك بن قرقيش وأخبره بموافقة حمزة على طلب الجواد
« أصفران » من كسرى ، فرح بذلك وأيقن أنه لا بد ملاقٍ مصرعه تحت قوائم
أصفران ، لهذا كان أسبقَ الحاشية إلى حضور مجلس الملك انتظِارا لحضور حمزة
وما يحدث بينه وبين أصفران . .

كان الأمير حمزة قد انشغل بالجواد واشتاق إلى رؤيته ، فبكر هو أيضاً فى
الذهاب إلى مجلس كسرى ، وبعد أن استقر به الجلوس وأخذ معه فى الحديث
والمؤانسة قال حمزة :

— سمعت ياسيدى الملك أن عندك جواداً لا يقدر على ركوبه أحد .

— نعم الأصفران !

— هل تسمح لى به ؟

— يا أمير حمزة ، إن هذا الجواد خطر ، وقد أمات عدةَ فرسان وأنا
أريد أن أكافئك بالخير على عظيم فعلك ، ولا أريد أن ألقى بك إلى الهلاك .

لما سمع حمزة ذلك اشتد ميله إلى الجواد ورغبتهُ فيه ، فقال للملك :

— إن هذا الجوادَ يصلح لى ، وليس من الصواب أن يبقى متروكا لا نفع
لهُ ، وإذا كنت أخاف من جواد فانى لست أهلا لأن أَجلس فى إيوان كسرى
وأتشرف به .

لم يجد كسرى بدأ من إجابة حمزة إلى طلبه ، فأمر باحضار الجو
ولكن الجميع خافوا فلم يجرؤ أحد على إخراجه من الاصطبل فنهض حمزة وقال :

ـ أنا أذهب إلى الإصطبل وأُخرجُ الأصفران بيدى .

وشاع الخبر فى المدينة ، وسر الوزير بختك ، وحزنت الأميرة مهردكار ، إذ خافت على الأمير حمزة من هذا الجواد ، وظلت قلقةً فى نافذتها تنظر ، ووقف الملك وحاشيته فى الساحة أمام الإيوان ، وازدحمت منافذ الطرقات بالناس ، وامتلأت سطوح المنازل بالنساء والأطفال .

وصل حمزة إلى باب الإصطبل ، فقال له الخدم :

ـ هذا هو الباب وهذا مفتاحه ، فاذا بعدنا فافتحه وأخرجه .

ـ كلكم تخافونه ... فمن كان إذن يقدمُ له العلف ؟

ـ فتحت له فتحة فى السقف يدلى إليه منها العلف ..

فتح حمزة الباب ونظر إلى الداخل ، وإذا الجواد يصهل صهيلا قويا مدويا ، وتقدم منه بقلب ثابت وجنان قوى وضربه بيده على رأسه وتسلم زمامه وقاده إلى الخارج مقيداً ، ولما كان فى وسط الساحة فك قيوده . وضرب أصفران الأرض برجليه ، ورفع أماميتيه إلى أعلى حتى استوى واقفاً متجها إلى حمزة ليبطش به ، فصاح حمزة فيه بصوت قوى وضربه بكفه على صدغه وشد لجامه ؛ فاعتدل فى فى وقوفه وهو يأخذ اللجام فى فمه طائعا .. كأنه عرفَ ان هذا الفارس هو فارسه.

وقفز حمزة إلى ظهر الجواد واستقر فوقه كأنه قطعةٌ من حديد ، وأرسل بصره إلى نافذة مهردكار بطريقة خفية ، فرآها تبتسم .. ثم انطلق بالجواد كالسهم

لسدد ... حتى انتهى إلى آخر الساحة ، ثم دار به إلى الجهة الثانية وانطلق كالبرق الخاطف ، ومر به أمام الإيوان والملكُ واقفٌ ينظر مبتهجا ، أما بختك فقد كاد ينفطر من الغيظ ، وزاد كمده لما فكر أن الجواد صار فى قبضة حمزة وصار حمزة به أقوى مما كان .

وجعل الأمير حمزة يروح ويجىء بالجواد ، حتى لان وسال العرق من جسده ثم نزل عنه ، وتسلمه عمر فربطه إلى باب الإيوان ، ودخل حمزة فصافحه كسرى وقال له :

— إن هذا الجوادَ لم يُخْلَق إلا لك ، ولهذا أقدمه إليك ليكون جوادَك الخاص تقاتل به الأعداء .

فشكر حمزةُ الملكَ ، ثم التفت إلى بختك وقال له :

— لقد كان حصولى على هذا الجواد بفضلك .. فلو لم ترسل لى من يخبرنى به لما عرفته ، فلذلك أشكرك .

فقال بختك والنار تتقد فى أحشائه :

— لقد ظهر لك حبى ، وإنى على الدوام فى خدمتك ، لعلمى أن سيدى الملك يحبك ويقدرك فأنا وجميع رجاله المخلصين نتمنى لك الخير .

ولما رجع حمزة إلى خيمته كان فى منتهى السعادة ، وقال لأخيه عمر :

— إنى أرى نفسى فى هذا اليوم قد ملكتُ الدنيا ، فهذا الجواد أعز عندى من كل شىء وهو لا يُقَدَّرُ بثمن .

ـــ أعرف ذلك ، وأسأل الله الذى ملَّكك الجوادَ أن ينيلك مرادك وتتزوج مهردكار .

ليس هذا أمرا سهلا ، هل سمعت قبل الآن أن أعجمية تزوجت من بدوى..؟ إن بين الحضارة والبداوة بونا عظيما .

ـــ إن لم يكن سبق ذلك فلتكن أنت أولَ من يسن هذه العادة ، وما المانع من ذلك والعرب أكثر لياقة من العجم ؟ ثم إن بنتَ الملكِ تحبك وهى التى طلبت ذلك، والملك كذلك يحبك وماطلبت منه أمراً إلا كان فعلُه أسبقَ من قولك ..

ـــ لقد علقت نفسى بمهردكار وانتهى الأمر ، وعزمت على زواجها ولن أرجع عما اعتزمته .

الفصل التاسع عشر

كان الأمير حمزةُ والنعمانُ ومن معهما من فرسان العرب فى مجلس كسرى عندما دخل الحاجب يبلِّغُ أن بالباب « مقبل البهلوان » يستأذن فى الدخول ، فأذن له الملك ، فدخل رجل طويلُ القامة ضخم الجسد كأنه فيل ، قبل يد الملك ووقف ينظر يمينا وشمالا ، وأمره كسرى بالجلوس ، فقال :

ـــ إن سَمح لى سيدى الملك فلا أجلس إلا بعد أن يُجيبَ لى طلبى .

ـــ وما تطلب ؟

ـــ لا أطلب إلا ماهو من حقوقى ، باعتبارى أكبرَ بهلوان فى بلادك .

ـــ أطلب ما تشاء .

ـــ علمت أن أحدَ العرب ، ويدعى حمزة ، قد جاء إلى هذه البلاد وحل فى المرتبة الأولى عندك ، وأنعمت عليه بكل عزيز لديك ، فرأيت أن أجربَ نفسى معه ، إما فى القتال ، وإما فى المصارعة ، فإذا غلبنى فدمى مباح له ، وإذا صرعته فعليه أن يعود إلى بلاده بالخيبة ولا يفتخر علينا ، إذ لايجوز أن يكون بين فرسان الفرس ألوف من البهلوانية الشداد ويأتى رجل بدوى فينال التقدم ، وما العرب إلا كعبيد لنا .. لا نرفع لهم شأنا ولا نعظم لهم قدرا ؟

قال كسرى :

ـ دع هذا الطلب ، فما أنت من رجاله ، وما فى ذلك من فائدة ، وأنت عزيز عندى ، وهو أكثر عزة .

ـ أنا لا أريد أن يكون أحد فى ديوان سيدى مقدما علىّ ، ويشهد الخاص والعام أنى أشدُّ منه بسالة وإقداما .

ـ هذا لا أوافقك عليه .

كان مقدم البهلوان يتكلم وهو ينظر إلى الأمير حمزة ، فعرف حمزة أن الكلام بشأنه ، فسأل بزرجمهر ــ الذى كان يترجم له ومنه ــ عن الموضوع ، فحكى له بزرجمهر ماتحدثا به ، فقال له :

ـ أرجو أن تبلغ الملك أنى أرغب فى مصارعته ، ومن كان مثلى فلا يخاف ألف بهلوان مثل هذا البهلوان .

ـ إنى أعرف ذلك ، وأريد أن تصرعه وتريحنى منه ، ومن المؤكد أن بختك بعث إليه وأحضره ، فقد كان غائبا عن المدينة ، وما حضر إلا بالاتفاق معه .

ثم التفت بزرجمهر إلى الملك ، وأبلغه رغبة الأمير حمزة ، فلم يوافق أولا ، ولكن مقبل ألح عليه حتى قبل .

نزل المتصارعان إلى الساحة ، وجلس كسرى فى شرفة الإيوان ينظر إليهما ، وتجمع الناس فى منافذ الطرقات وعلى سطوح المنازل ، وأطلت مهردكار من نافذتها .

ع مقبل ثيابه ولم يبق عليه إلا سروالٌ صغير من الجلد ، ثم أخذ شيئا من الشحم ودهن به جسمه ، ثم أشار إلى حمزة أن يفعل مثله فلم يقبل ، وكان قد نظر إلى فوق فرأى مهردكار ، فنفد صبره على مقبل واستقبح أن تنظر مهردكار إلى جسم رجلٍ عار ، وانقض عليه فمد يده إلى وسطه فتزحلقت على الدهن ،

وأمسكه مقبل من حزامه وشده إليه محاولا أن يلقيه إلى الأرض : فلم يتزعزع ، بل أثبت رجليه على الأرض كأنه الجبل الراسى . ودامت المحاولة من الاثنين وكل منهما يُظهِرُ أقصى قوته ، وخاف محبو حمزة عليه عندما رَأَوْهُ لا يتمكن من الإمساك بالجسد المدهون ، وكانت مهردكار أكثر الناس قلقا على حمزة ، وظلا على ذلك حتى تعب مقبل من شد حمزة ومحاولة إلقائه على الأرض ، ولم يعد فى وسعه الثبات ، وكاد يقع هو من التعب ، فلحظ حمزة ذلك ومد يده إلى رقبته قبض عليها ، وأرسل يده الثانية إلى ساقيه ورفعه بكل ما أعطى من القوة والبأس حتى صار فوق رأسه ، ومشى به حتى وضعه أمام كسرى .

وصرف حمزة كل اليوم عند كسرى وهو مسرور الخاطر قرير الناظر بتقريبه إليه وتقديره له واحترامه إياه . وعند المساء نزل من الإيوان وركب الأصفران ، ورفع عينيه وبادل مهردكار النظرات الوالهة ، وسار إلى الخيام .

وبعد قليل وصل إليه رسول مهردكار بالكتاب الآتى :

« قد ثبت عندى شدة حبك لى وتنازلك بقبولى لخدمتك ، وقد نظرت فى حالتنا فعجبت كيف أننا متقاعدون عن تدبير الوسائل لالتقائنا ، وإنى أرى ذلك لا يتم إلا بتدبيرك ، فإذا تيسر لك أن تتوصل إلى فلا تتأخر ، وإنى أعدك أن أكون رهينَةَ أمرك أسيرةً بين يديك فلا أمل لى فى هذه الدنيا إلا أن أكون بجوارك وأراك على الدوام » .

فدعا الرسول وقال له :

— أخبر مولاتك أنى سأسير إليها فى هذه الليلة ، فلتكن على حذر ولتدبر أمر دخولى من الباب بحيث لا يرانى أحد .

الفصل العشرون

دعت مهردكار حارسَ بابِ قصرها ، وقالت له :

— منذ عشر سنين وأنت حارس على باب قصرى ، وأنا لا أمنع عنك شيئاً ، وأريد الآن منك أمراً والك الجزاء العظيم .

— إننى يامولاتى خادمك المخلص فمرينى بما تشائين .

— لا يخفى عنك أمر حمزة البهلوان الذى جاء إلى هذه البلاد وفعل ما فعل حتى غمر بلادنا بأفضاله ، وكنت لا أعرفه ، بل أسمع عنه فقط ، فقصدت أن أراه لأكافئه على فضله ، وسيزورنى فى هذه الليلة ، فلا تمنعه إذا جاء ، ولا تظهر أمرَه لأحد .

ودفعت إليه بقبضة من الدراهم ، فتناولها فرحاً وهو يقول :

— أحقا ما تقولين ياسيدتى . . وهل أرى الأمير حمزة يأتى إلى هـذا القصر ؟

— نعم ، بعد قليل .

— إنى مُولعٌ به يا سيدتى ، وأنا مستعد أن أفديه بروحى ، وأعاهدك ألا أمنعه وألا أخبر أحداً بمجيئه ولو كان فى ذلك فقدانُ حياتى .

وصرفت الخدم ، ولم تبق معها إلا قهرمانتها العجوز ، وأمرت الرجلَ الذى اعتادت أن ترسله إلى حمزة أن يقف فى الخارج ليخبره بأن كل شىء على مايرام . . . ولبست أفخرَ ما عندها من الملابس والحلى ، وخرجت إلى الغرفة التى أعدتها القهرمانة لاستقبال حمزة فوجدتها على أحسن ما تكون . وجلست تنتظر بقلب خافق ، وجعلت تفكر فيما تقول له ، وما يقول لها ، وشعرت بسعادة ممزوجة برهبة .

أما الأمير حمزة فإنه استصحب أخاه عمر وذهبا إلى المدينة ، وسارا حتى قرُبَا من قصر مهردكار ، فوجدا خادمها فى الانتظار ، ودخل حمزة القصرَ والخادم يسير أمامه من سلم إلى آخر ومن دهليز إلى دهليز ، حتى وصل إلى حجرتها بالطابق العلوى ، فلما شعرت به اضطرب قلبها وخرجت للقائه ، فلما رآها لم يتمالك نفسه أن قبلها قبلةَ اللقاء ، وأخذتهُ من يده ودخلت به ، وإذا هو يشم فى الغرفة روائح الند والعنبر والزهور ، وجلس على كرسى من المخمل الأحمر المزركش ، مما لا عهد له به من قبل ، قالت مهردكار :

— ما كنت أظن الزمان يسمح بهذه السعادة ، لقد وصلت الآن بقربك إلى منتهى ما كنت أتمنى .

— إننى مثلك أشعر بهناء وراحة عجيبين ، لم أكن أظن أنْ أُلاَقِى مثلهما فى حياتى ، وسأطلبك لنفسى زوجة من أبيك ، فاذا أجاب كانَ خيراً وإلا أخذتك بقوة السيف ، وان تكونى لغيرى أبدا ما دمتُ على قيد الحياة .

— إننى أفضل أن تبقى الصداقة بينك وبين أبى على حالها ، وأنا أحب أبى وأريد أن أظل مطيعةً له .

ولحظت مهردكار أن الأمير حمزة تكدر بعض الشيء ، فقالت برقة :

— لا تشغل بالك يا حبيبي بهذا الأمر الآن ، ولماذا نقدر السوء قبل أن يقع ؟ دع كلَّ شيء إلى وقته .

وقضيا ساعتين في الحديث ومناشدة الأشعار وتناول ما لذ وطاب من الطعام والشراب ، ثم قال لها وهو يتأهب للانصراف :

— أريد أن تعاهديني على الوفاء والمودة الدائمة ، وإني أقسم لك بالله العظيم وبيت الله الحرام أن أبقى على حبك إلى الأبد وأن أطلب زواجك حتى أحصل عليه ولو حالت دونه ألوف من المصائب .

— وإني أيضا أقسم بربك الذي أعبده أن أحافظ على حبك حتى الموت وأرعى عهدك ولا أخونه قط .

— غداً سأذهب إلى أبيك كالمعتاد ، وفي أثناء حديثي معه أطلب يدك منه وأنظر ماذا يقول ولا أظنه يمتنع عن إجابتي إلى طلبي ولكن بعض الحاشية قد يشيرون عليه بغير ذلك .

— إني أحذرك من الوزير بختك ، فهو رجل خبيث ، وأبي ينقاد له لمكانته في البلاد ، فهو من أسرة كبيرة ، والناس يعرفون أن بزرجمهر أعقل منه وأحكم ، غير أنهم يعلمون أنه يعبدُ اللهَ ولا يعبد النار ، ولهذا يحبون بختك أكثر منه .

ذهب حمزة في اليوم التالي كعادته إلى مجلس كسرى ، وجعل الملك يحدثه

متبسطاً معه ، وحمزة سارحٌ فى امر عـلاقته بمهردكار وكيف يفاتح أباها فى خطبتها منه . وكان بزرجمهر كالعادة يترجم بين كسرى وحمزة، وقال الملك لوزيره بزرجمهر :

— أبلغ الأمير حمزة أنى أشعر دائما بالجميل الذى صنعه معنا ولا أنساه قط ، وحتى الساعة لم أكافئه ، وأريد أن يطلب منى ما يتمنى ، ولن أرد له طلبا مهما كان ، مقابل فضله العظيم على بلادنا .

فقال حمزة لبزرجمهر :

— أخشى أن أطلب شيئا فلا يجيبنى إليه .

— أطلب ما تشاء .

— أريد أن تسأل الملك زواجى بابنته مهردكار .

لما سمع ذلك بزرجمهر جف ريقه واضطرب ... وقال :

— إن هذا الذى تطلبُه لا يمـكن أبدا : فارجعْ عنه ولا تُلْق بنفسك فى سبيل العناد فينقلب الحب بينك وبينه إلى بغض وعداوة ، اطلب أمراً لا يمس ناموسه ودينه .

— لا أريد إلا أن يسمح لى بابنته . فان أجاب بالرضا كنت له خادماً على طول الزمان وإلا جردت سيفى فى وجهه حتى أنال بغيتى ، وأنا لا أطلب أمراً يخل بناموسه ودينه فالزواج سنة محمودة عند بنى الانسان ، ومن حيث الدين فإن مهردكار على دين الله عز وجل .

تحير بزرجمهر ، ولحظ كسرى من حال حديثهما أن حمزة لا بد يطلب أمراً خطيراً ، فقال للوزير :

— أخبرني بما يطلب حمزة ، فإني لا أرفض له طلباً ولو كان يتعلق بابنتي مهردكار ...

— إنه يطلب ذلك يا سيدي .. يريد أن يتقرب منك فيتزوج الأميرة مهردكار .

استحى الملك أن يرجع في كلامه ، فقال على الفور :

— بلغ حمزة أني أجبته إلى طلبه .. حقا إن ابنتي مهردكار بنت أعظم ملوك هذا الزمان ، وقد أعطيت من الحسن والآداب والعقل مالم يعط غيرها ، ولكنها تحتاج إلى زوج كفء كالأمير حمزة ... وزواجه بابنتي لا يفي بفضله علينا وتخليص بلادنا من العدو .

الفصل الحادي والعشرون

كان لموافقة الملك كسرى على زواج ابنته بالأمير حمزة أثران مختلفان : أولهما الفرحة الكبرى عند مهردكار وحمزة والعرب ، وقد دهش النعمانُ من ذلك أيما دهش . فلم يكن يصدقُ أن يزوجَ الملك كسرى ابنته من عربي مهما كان شأنهُ ، والأثر الثاني كان الاستنكار الشديد من جانب أعيانِ الفرس وعلى رأسهم الوزير بختك الذي ساءه هذا النبأ أيما إساءة ، فطلب مقابلة كسرى على انفراد ، وقال له :

— لقد جئت إليك ياسيدى فى هذا الوقت لأنى رأيت منك فى هذا اليوم ما أدهشنى وكدت لا أصدقُ أنك كسرى أنو شروان . . .

— ما الذى أدهشك ؟ وما تقصد ؟

كيف رضيتَ أن تزوج مهردكار من هذا البدويِ ؟ إنه لوأراد الزواج من أية بنت فارسية عادية لأبينا عليه ذلك ، فكيف ببنت كسرى ملك الفرس وسيد الملوك ؟ إن هذا الزواج إن تم فسيغضب النار . . . ويغضب رعاياك ، وإنى باعتبارى واحداً منهم ، وباعتبارى مسئولا عن حفظ ناموس الدولة ، أرجو منك الرجوع عن هذا الأمر . . .

— هذا مستحيل ، لأنى وافقت ولا يمكن أن أرجع ، على أنى أرى الأمير

حمزة أهلا للزواج من مهردكار ، بل هو أهل لأن يكون حاكما على بلاد الفرس ، ولابساً تاجي .

— إنك قد تغيرت ياسيدى . واعلم أن النار تدعوك إلى العدول عما اعتزمته من تزويج ابنتك من رجل على غير دينها ، وستضطر إذا زوجته أن تعبد الله الذى يعبدُه . وسيظنّ العربُ أنك خفت بأسهم وبأس أميرهم حمزة فزوجته ابنتك ، فيطمعون فينا ويصبح لهم الحق فى الملك بعد المصاهرة واتصال النسب . هذا إلى أننا الآن لسنا بحاجة إليهم ، فقد انقضى ما كنا نريده منهم .

سكت بختك ريثما يرى وقع كلامه عند كسرى ، فرآه مطرقاً فاستأنف يقول :

— وأنا يا سيدى أستطيع أن أخلِّصكَ منه بطريقةٍ أخرى غير الرجوع فى قولك .

رفع كسرى رأسه وقال :

— وما هى هذه الطريقة ؟

— إذا سألك حمزةُ الإنجاز بالوعد فقل له إنى وعدتك ولا أخلف وعدى ، ومن ناموسنا أن تطلبها من الوزيرين بزرجمهر وبختك ، ولا شك أن بزرجمهر سيوافقُ ، أما أنا فأدبر أمرى .

وفى صباح اليوم التالى حضر حمزةُ إلى الإيوان واستقبله كسرى بالبشاشة والترحيب ، وأجلسه إلى جانبه ، ولما سأله حمزة عن موعد الزفاف ومقدار ما يريد لابنته من المهر ، قال كسرى :

— لقد وافقت على زواجك بابنتي ، ولكن الأمر يستلزم قبل ذلك استشارة الوزيرين بزرجمهر وبختك ، ولا سيما أن بختك يحب أن يرى إن كان ذلك موافقاً للشريعة الفارسية أم لا .

نظر حمزة إلى بزرجمهر ، وعرف كل منهما أن فى الأمر دسيسةً ، وأبدى بزرجمهر موافقته ، وقال حمزة لبختك :

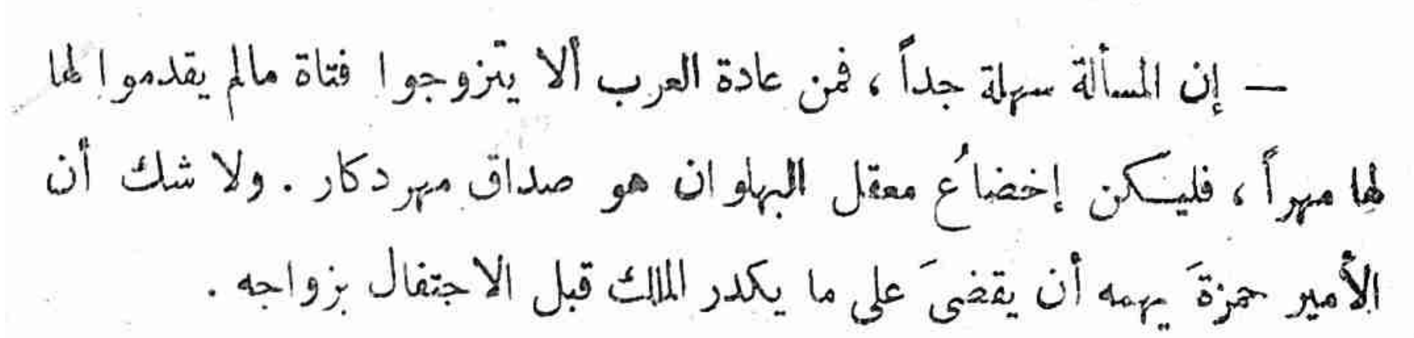
— هل تقبل أيها الوزير ، أم ترى أن هناك ما يمنع من هذا القران ؟

فقال بختك فى لهجة من يتحدث بحزم فى أمر له خطره :

— كنت أمس مجتمعا بسيدى الملك ، فوجدته مضطربَ الأفكار ومشغولَ البال ، فقلت له : لماذا أنت متكدرٌ ياسيدى وقد كنتَ فى النهار مسروراً بزواج ابنتك من الأمير حمزة ، ومن اللازم أن نهتم بهذا الزواج ونستعد للاحتفال به ، لأن أهل البلاد ينتظرونه ويحبون أن يفرحوا ببنت ملكهم وبالأمير حمزة مخلص بلادهم من الأعداء .

فقال لى سيدى الملك :

— إنى من أجل ذلك مهموم لا نَدَماً على وعدى للأمير حمزة فهو يستحقه وله عندى منزلةٌ لا تُوصَفُ . غير أنى كنت أريد قبل ذلك أن أرسله إلى « معقل البهلوان » صاحب حصن تيزان ، الذى عصانى وخرج على طاعتى ، وأنا الآن فى حرج . أخشى أن أعرض هذا الأمر على الأمير حمزة فيظن بى السوء .



فقلت له :

— إن المسألة سهلة جداً ، فمن عادة العرب ألا يتزوجوا فتاة مالم يقدموا لها مهراً ، فليكن إخضاعُ معقل البهلوان هو صداق مهردكار . ولا شك أن الأمير حمزةَ يهمه أن يقضىَ على ما يكدر الملك قبل الاحتفال بزواجه .

لما سمع بزرجمهر ذلك فطن إلى حقيقة المكيدة التى يدبرها بختك لحمزة ، فإن معقل البهلوان فارس عنيد متحصن فى قلعته وقد بدد كل الجيوش التى ذهبت إليه .

ولكن حمزة نهض واقفاً أمام كسرى وهو يقول :

— أقسم بالله العظيم رب موسى وابراهيم وبالركن والحجر والبيت العتيق المطهر أنى لا أتزوج بمهردكار مالم أحضر ذلك العاصى إلى هذا الإيوان خاضعا ذليلا ... وأقسمُ برأس كسرى صاحب هذا الأيوان أن أسير إليه وحدى . . . ولا يصحبنى إلا أخى عمر الكشاف ، ولن أصبِحَ فى الغد إلا على الطريق إلى تيزان إنجازا لغاية عمى الملك .. أبى مهردكار .

الفصل الثانى والعشرون

ركب حمزة جواده الأصفران ، وسار فى طريقه إلى تيزان ؛ ولما تبطن القفار ، وتمادى به التسيار ؛ تذكر محبوبته مهردكار ، وحبها الذى يدفعه إلى ملاقاة الأخطار ، فأنشد وقال :

يكفيك أنى فارسُ الأقطار ومذلُّ كل سَمَيْدَعٍ جَبَّار

وقويم رمحى قد أعد سنانه لصدور أهل البغى والكفار

إن كان بختك قد سعى بمذلتى فالدهر زاد بهيبتى ووقارى

لولاك ياشمسَ الجمال ونوره أنزلتُ بالأعجام كل دمار

وظل حمزة سائرا عدة أيام ، وبين يديه أخوه عمر يخترق الشعاب والقفار ، كأنه السهم إذا أطلق من الأوتار ، إلى أن قربا من تيزان ، وتبينا على بعد قلعة « معقل البهلوان » فنزل الأمير عن جواده ، وكان الوقت مساء ؛ فناما إلى الصباح .

نهض حمزة وركب الأصفران ، وتقدم إلى جهة القلعة ، فرأى اثنين من أتباع معقل البهلوان ، فلوى عنان جواده نحوها ، وقال لهما :

— اذهبا إلى الأمير معقل وأخبراه أن حمزة العرب قد جاء من بلاد كسرى لمنازلته ، وقولا له يبرز إلى فى ساحة القتال .

فقالا له :

— إننا ننصحُك أن ترجِعَ من حيث أتيت ولا تعرض نفسك للأخطار ، فما معقل البهلوان ، كمن رأيت من الفرسان ، ونحن نخاف عليك أن يعدم حياتك وأنت في زهرة شبابك . من الجنون أن تلقى بنفسك إلى أحضان الدمار .

وبينما هم كذلك ، إذ رأوا فارسا يقبل من جهة القلعة متقلداً سلاحه راكبا على جواده ، يتجه نحوهم . قال الرجلان لحمزة :

— هاهو ذا أميرنا معقل البهلوان ، والويل لك منه .

التقى البطلان وحدق كل منهما بالآخر . ثم قال معقل البهلوان للأمير حمزة :

— إنى أتوسمُ فيك الخير ، وليس بينى وبينك عداوة ، فلماذا جئت إلى وماذا تريد منى ؟

— علمت أنك عصيتَ الملك الأكبر ، فجئت كى أخضعك وآخذكَ مقيداً وأقدمك إلى الملك كسرى مهراً لابنته .

— ولماذا تقاتل من لا يريد أن يقاتلك ؟

— لا تريد أن تقاتلنى ؟

— نعم ، فقد جاءتنى أخبارُك ، وأرسل إلى بشأنك الوزير بختك وأخبرنى بالحيلة التى أراد أن يوقعك فيها ، وطلب منى أن أستعدَّ لك وأقتلك ، وقد علمت بمجيئك من حارسى الذى رآك على الطريق .

— ولماذا لم تنفذ ماطلبه منك ؟

— لأنك تعبد الواحد الديان ، وأنا أيضا على عبادته ، وأحب أن أقول لك ياأمير حمزة ، لاتثق بهؤلاء العجم ، ولاتعلق أملا على وعودهم . فكسرى رجل مترددٌ ضعيف الإرادة ، وبختك محتال غادر ولو لم أكن عارفا ما حملهما على أن يلقياك إلى وهدة الهلاك لقاتلتك ، غير أنى رأيت أن أصاحبك إلى المدائن لتخربها على رأس كسرى وبختك وتأخذ مهردكار بالقوة وتتزوجها .

نظر إليه حمزة مندهشا ، وكاد يوافقه لولا أنه تذكر القسم الذى أقسمه فى ديوان كسرى .. أن يقود معقل البهلوان ذليلا . فقال له :

— لا تظن أنى ممن يقاد بالحيل والخداع . فما أتيت إلى هذه البلاد إلا لآخذك مقيداً إلى كسرى ، فكيف أخلف وعدى وأحنث فى يمينى وأتفق معك عليه ؟ خذ سلاحك والقنى .

وجرد سيفه وهجم على معقل البهلوان ، فالتقى به معقل بقوة قلب وثبات جنان ، ودخل معه مجال الحرب والطعان ، وتركا الكلام والجدال وهاجا كما تهيج فحولُ الجمال . وداما على هذا الحالِ إلى قرب الزوال ، فكفا عن القتال ، دون أن ينال أحدهما من الآخر أى منال . .

وقال معقل البهلوان وهو يدخل سيفه فى غمده :

— قد انتهى الشوط دون أن نصل إلى نتيجة ، وبما أنك غريب هنا فتعال معى إلى القلعة لتأكل الطعام وتنام فى قصرى .

— كيف يكون ذلك ؟ وكيف آكل طعامك ثم أقاتلك ؟ ثم كيف آمن على نفسى وأنا عند عدوى ؟

— ليس بيننا عداوة .. إنى أعتبرك أكبر صديق لى .. إنما أردتُ أن أثبت أنى لا أطلب صداقتك خوفا وجبنا . وإذا جئتَ معى إلى القلعة فسترى صدق وأطلعك على كتاب بختك والمال الذى بعث إلى به . وعلى كل حال إذا كنت ترغب فى النزال فإننا نعود إليه فى الصباح ، ونعود إلى الألفة والمودة فى المساء ، إلى أن يظهر الفوز لواحد منا .. وثق أنى صديقك على أى حال ، ويسرنى أن تتخذنى صديقاً لك فإنى لم أقاتل فارسا مثلك قط .

لما سمع حمزة كلام معقل أحس بأنه صادر عن إخلاص ومودة وصدق ، فاحتار فى الأمر ونظر إلى عمر الكشاف كأنه يستشيره ، فقال له عمر :

— أدخل مع معقل البهلوان إلى قلعته ونم عنده ، فمثله لا يخون .

فنزل الأمير حمزة عن جواده ، وسار مع معقل ، وكل منهما فرحٌ بالآخر ، واستُقبِلَ حمزة فى القلعة بالترحيب والاكرام . وبعد الراحة والطعام جاءه معقل بكتاب بختك والأموال التى أرسلها إليه ، وقال له خذ كل هذا معك ليكون حجة لك تقنع بها هذا الوزير الخبيث .

— إنى لا أزال أراعى الفرس وأتجنب كلَّ أمرٍ يلقى العداوة بينى وبينهم ، من أجل مهردكار وإكراما للوزير الطيب بزرجمهر ، وقد تفرغ جعبة صبرى يوما ما دام فيهم بختك .. هذا الخبيث المخادع المحتال .. فأثير عليهم حربا هائلة تنقرض بها دولتهم .

— وماذا تريد الآن ؟

— لا أريد أن أدخل المدائن إلا وقد وفيت بوعدى وقسمى .

— يخطر لى أن أسلم نفسى إليك وأسير بين يديك ، حتى تقدمنى إلى كسرى فتكون قد وفيت وصدقت . .

— وهذا أيضا لا أريده .. لأنى ما جئت إلا لمحاربتك .. نعم إنه قد زالت من بيننا العداوة ، وصار كل منا لا يرغب فى دم الآخر ، ولكن لا بد من مداومة المبارزة ، فإذا قهرتنى كان رجوعى عن غايتى بحق وصدق ، وإلا فيكون ما أطلبه باستحقاق وعدل ، وأنا لا أحب الغش ، سواء لكسرى أو حتى لأعدى أعدائى .

دهش معقل من كلام حمزة ، وأعجب بشهامته وشرف نفسه ، ولم يسعه إلا الخضوع لما يراه .

وفى صباح اليوم التالى التقى البطلان فى الميدان كأنهما عدوان لا صديقان .. وجعل كل منهما يُبدِى كلّ ما عنده من ضروب القتال ، حتى جاء وقت الزوال ، فأغمدا سيفيهما وعادا إلى القلعة وكلٌّ منهما معجب ببسالة الآخر وأسلوبه فى الحرب ، وأكلا وشربا وتحدثا وناما .

واستمر بينهما الحال على ذلك المنوال خمسة عشر يوما . . حتى قلق الأمير حمزة من طول غيابه عن العرب فى المدائن ، ولعب به الشوق إلى حبيبته مهردكار ، وداخله الندم على مسالمة البهلوان ، وقال فى نفسه لو لم أدخل معه القلعة وآكل معه الطعام لكان قلبى قد قوى عليه وهزمته وعجلت بالرجوع ، ثم انصرفت أفكاره ومشاعره كلها إلى مهردكار ..

وفى صباح اليوم السادس عشر ركب حمزة جواده الأصفران ، وخرج إلى معقل البهلوان فى ساحة الميدان ، وقال لمعقل بعد أن حياه :

— اعلم أن هذا اليوم هو اليوم الأخير ، ولا بد فيه من إنهاء الأمر .

واشتبك الاثنان فى أشد قتال ، وأعظم نزال ، لا يأخذهما فتور ولا إهمال ، كأنهما أسدان فى أدغال ، أو لبؤتان فقدتا الأشبال ، إلى أن كان العصر ، وهما على هذا الأمر .

وأراد حمزة أن يُنْهى القتال فضاعف جهده ، وسدد ضربةً قويةً وقعت على رقبة الجواد ، فبرتها كما يبرى الكاتب القلم ، ووقع معقل إلى الأرض . ورجع حمزة إلى الوراء وهو يصيح :

— قم أيها الفارسُ الأمجد ، واركب جواداً آخر ولا تضيع فرصة باقية لنا من هذا النهار ..

— معاذ الله يا أخى أن أشهر بوجهك حساما .. إنك أشجع رجل فى هذا الزمان ، وأعترف أنك قهرتنى وصار لك الحق أن تربطنى بالحبال وتأخذنى أسيرا إلى كسرى ، وإذا أردت أن تكرمنى فاتخذنى صديقا أمينا ، وسوف تظهر لك الأيام إخلاصى وصدقى .

فنزل حمزة عن جواده ، وقبل معقل بين عينيه ، وقال له :

— إنك أخى ورفيقى على طول الزمان ، وقد عرفت إقدامك وشجاعتك ولولا قتل جوادك ما حل بك ما وقع !

الفصل الثالث والعشرون

كان الملك كسرى — بعد سفر حمزة — يجتمع كلَّ يوم بوزيره بختك ، ويدور الحديث بينهما عن حمزة فيؤكد له بختك أن حمزة لا بد أن يقتله معقل البهلوان ، وكم قتل قبله من فرسان . . وكسرى يتردد فى كلامه ، ويقول له إنى لم أكن أريد موت حمزة ، فقد صنع لنا معروفا وليس من العدل أن نكافئه بالموت . . غير أن طلبه الزواج من ابنتى جعلنى أسلم بهلاكه ، فإن شريعة النار لاتبيح اختلاطنا بأجلاف العرب عباد الله . . وحقاً إن حمزة كفء لابنتى لأنه فارس شديد وبطل مجيد ، ولكنه عربى ومن العار أن نزوجه . .

حتى كان يوم وصولِ حمزة ، حين جاء الخبرُ بوصوله سالماً ومعه معقل البهلوان . صعق بختك وقال للرسول الذى أبلغ النبأ :

— هل رأيت معقل البهلوان مُقَيداً ؟

— رأيتهُ راكباً على جواده إلى جانب حمزة :

فقال كسرى لبختك :

— قلت لى إن حمزةَ لن يعودَ سالما من قتال معقل . فها هوذا قد عاد



ولاشك أنه أسره ثم أطلقه واصطحبه . كنا أمام واحد فأصبحنا أمام اثنين ..

فقال بختك يحاول أن يخفف الأمر :

ـ لا أظن ذلك ، وأغلب ظني أن معقل البهلوان هو الذي أسر حمزة وأطلقه وجاء وإياه إلى حضرتك يقدم طاعته إليك . . ولو كان حمزة هو الذي أسر معقل لما أطلقه إلا أمامك لأنه يريد أن يدخله مقيداً ذليلا . .

وفيما هما على ذلك دخل عمر الكشاف من باب الإيوان ، ودفع إلى كسرى الكتاب الآتي من حمزة :

من حمزة العرب إلى عمه الملك كسرى . .

إعلم ياسيدى أنى سرت من حضرتك وأنا أتمنى أن أصل إلى معقل البهلوان لإذلاله وأعيده إلى الطاعة ، لأنه يصعب على أن أكون صهرك وبهلوان بختك وصفيك وأسمع أن أحداً من الناس يعصى أمرك . ولما وصلت إلى قلعة تيزان قاتلته عدة أيام ثم أسرته وتملكت القلعة وأنا وحدى ليس معى إلا رفيقى عمر الكشاف ، والحق يقال إن معقل فارس من الفرسان الشداد لا أظن ثانيا فى هذه البلاد . وقد استجار بى فأجرته وجئت به ، وهو الآن فى قبضتى ، وأبعث إليك هذا لأبشرك وأطلب إليك أن ترسل لى قفصاً مع عمر لأحبسه فيه وأدخله إليك مقيداً فى هذا القفص ليعرف عظمتك وأنك قادر على نيل مرادك وكيد أعدائك . ولا أريد منك مقابل ذلك إلا رضاك وترك كلام المبغضين الذين يقصدون الضرر لك ولدولتك ، والسلام ...

قرأ بزرجمهر هذا الكتاب وترجمه لكسرى ، ثم قال له :

– إعلم ياسيدى أن الأمير حمزة هو نادرة هذا الزمان وفارس لا نظير له فيه ، وقد سبق صيته فعله ، وما جاء إلا رحمة لبلاد الفرس ، وأرى أن تتخذه سنداً لك وتصفو له نيتك ، فمن كان مثله لا يُترْكَ ولا يهان .

كان بختك يسمع ذلك وقلبه يتقطع ، ولم يسعه إلا أن يخرج من الديوان مطرقاً حزيناً ، وأنعم كسرى على عمر الكشاف بألف دينار وأمر أن يُعْطَى قفصاً من الحديد ليوضع فيه معقل البهلوان .

الفصل الرابع والعشرون

قال الأمير حمزة لمعقل البهلوان :

إنى كما تعلم ياأخى قد أقسمت بالله العظيم أن أقدمك إلى كسرى مقيداً ويصعب على أن تدخلَ إلا مُكَرَّماً ، غير أنى أحب أن أبرَّ بقسمى ، فلا عليك أن تدخل هذا القفص . . . لأنى سأطلقك منه هناك .

– إنى لا أخالف ما تأمر به ، غير أنى أعرف أن كسرى سيأمر بقتلى فى الحال .

– يصعب على إذلالك، أما قتلك فان يجرؤ عليه أحد مادمت إلى جوارك .

توجه معقل البهلوان إلى خيمته لينام حتى الصباح ، أما الأمير حمزة فان عينه ما كادت تغفو حتى جاءه رسول مهردكار بكتاب تبثه فيه لواعج شوقها وتعرب له عن سرورها بعودته وانتصاره وتوفيقه فى مهمته . وكتب لها جواباً قال فيه إنه لا يقل عنها شوقا وحباً وإنه يتحمل من أجلها كلَّ عذاب ولو كلِّفَ أن يسير إلى أقصى الأرض مادام فى ذلك رضاء أبيها الذى يتوقف عليه نيل مراده بزواجه منها .

وفى الصباح ركب حمزة جواده الأصفران ، وسار نحو الإيوان ، وإلى جانبه الملك النعمان ، وباقى أمراء العربان ، ولما قرب من الإيوان نظر إلى فوق

فوجد مهردكار جالسة قرب النافذة تنتظر قدومه وهى بالملابس البيضاء الحريرية ، وعليها من الجواهر ما يتكسر على نوره ضوء الشمس ، وعلى رأسها إكليل من الماس محاط بطاقات من الزهور البيضاء والحمراء . ولما رأته تبسمت ووضعت يدها على قلبها ، فأجابها بمثل إشارتها ، وإن كان لم يلمح دمعة فرحٍ انحدرت من عينها إلى صَدْرِها .

وكان الرجال قد سبقوا بمعقل البهلوان محمولا فى القفص إلى كسرى ، وقد سر هذا بأسر معقل وقال له :

— كيف ترى نفسك الآن أيها المتكبر المعتدى ؟ أكنت تظن أنى أعجزُ عنك ؟ لقد بعثت إليك برجل واحد فأتى بك على هذه الحالة . .

— إنك لو بعثت إلى رجال العالم جميعاً وأنا فى حصنى لما حسبت لهم حساباً ولا كنت ترانى فى مثل هذه الحالة ، غير أن الأمير حمزة خدع بكم وتوهم فيكم صفاء الباطن والنية فسعى فى تنفيذ رغبتكم .

فقال بختك لكسرى :

— أرى ياسيدى أن تأمر بقتله فى الحال وتريحنا منه ، فهو يتطاول حتى وهو فى الأسر . .

فقال معقل :

— ليس فى وسع أحد أن يمد يده إلى ، إلا الذى أسرنى ، فهو وحده له حق التسلط على والتصرف فى أمرى .

فاغتاظ كسرى من كلامه ، واغتنم بختك الفرصة فأراد أن يعجل بقتل معقل البهلوان خوفاً من أن يظهر الكتاب الذى بعثه إليه كى يقتل حمزة فأمر أن يحمل القفص بما فيه ويلقى فى النار .

وهم الجنود بحمل القفص ، وإذا حمزة يدخل هو ومن معه ، فأدرك حمزة الموقف من صياح معقل والتفاف الجنود حوله ، فصاح بهم وهجم عليهم غير ملتفت إلى كسرى . . وقد جرد السيف ، فارتعد الجميع منه ولا سيما الوزير بختك الذى أيقن أن حمزة إذا عمل سيفه فسيكون هو أول فريسة له .

أما الملك كسرى فانه التفت إلى الوزير بزرجمهر قائلا له :

— قل للأمير حمزة يغمد سيفه ويهدأ . . ونحن نجيبه إلى كل مايطلب وقل له إننا لم نكن نعلم أن معقل فى ذمته وحماه . . .

فأبلغ بزرجمهر حمزة كلام الملك وطلب منه أن يتقدم من كسرى ويقدم له واجبات الاحترام ، فأطاع حمزة وفعل ماأشار به بزرجمهر لحبه إياه واحترامه له .

وقال حمزةُ لكسرى بعد أن سلم عليه وقبل يديه :

— إنى ياسيدى لا أُسلم بقتل هذا الفارس العظيم والبطل الكريم ، ففى بقائه نفع لنا ، وقدعاهدنى على الصداقة والإخلاص ، وإنى أرجو أن ينالَ من رعايتكم مثل ما أناله أنا .

فأمر كسرى باطلاق معقل البهلوان من القفص وفك قيوده ، فما كان من معقل إلا أن تقدم من كسرى وشكره وقبل يده .

الفصل الخامس والعشرون

توجه كسرى إلى قصر ابنته مهردكار ، فاستقبلته فرحةً مستبشرة بقدومه وجلسا يتحادثان ، قال لها :

— اعلمى ياعزيزتى أن الأمير حمزة وحيدٌ فى هذا الزمان ، وقد وعدته بالزواج منك ، ولابد من إتمام هذا الزواج ، ولولا بختك ماأرسلته إلى تيزن ، وقد عاد منصوراً ومعه معقل البهلوان .

أطرقت مهردكار حياء وقالت :

— أنت والدى ومدبر أمرى ، وأنا واثقة من حبك الأبوى وأنك لاتفعل إلا ما فيه مصلحتى .

وقصد كسرى بعد ذلك إلى إيوانه ، فوجد الوزير بختك فى انتظاره ، قال بختك :

— إنى أعرفُ ياسيدى أن حمزةَ لم يَبْقَ له إلا أن يطلب إتمام زواجه بمهردكار ، وقد جئت الليلة لأعرض عليك طريقة تحفظ ابنتك من عدوك وعدوها ..

— إنى لا أرى مانعاً يمنع من إتمام هذا الزواج .

— لاياسيدى ، إنى مسئول عن شرف الفرس وملك الفرس ، ولا أريد

أن يسودنا العربُ ويُظَنَّ أننا نخافهم ، فلا بد أن نتخلص من هؤلاء البدو ، ليعودوا إلى بلادهم ويرعو إبلهم وغنمهم .

فأطرق كسرى قليلا ، ثم رفع رأسه وقال لوزيره :

— لو فتشت قلبي لوجدتني أميل إلى حمزة وأريد أن يكون زوجا لابنتي لو كان من عباد النار . . ولكني أرى من الضروري أن أتغلب على ميلي هذا من أجل صالح البلاد وعبادةِ النيران .. ولكن قل لي : ماهي الحيلة التي فكرت فيها لمنع هذا الزواج ؟

— فكرت أن أعرض عليك أمام العرب أن الخزائن فارغةٌ من المال وليس فيها ما يكفي لنفقات العرس ، لأن حكام الأقاليم والبلاد التابعة للدولة الكسروية لم يبعثوا بالضرائب منذ سنين ، وبذلك نحرك حمزة كي يذهب هو ومن معه إلى هؤلاء الولاة فيحاربوهم ويبعدوا عنا وينشغلوا بهم ، ولا بد أنهم سيلاقون في ذلك أهوالا تفنيهم وتريحنا منهم .

— ولكن كيف يكون موقفنا مع هؤلاء الولاة وهم لم يمنعوا عنا الضرائب؟

— لقد دبرت هذا الشأن . . سأبعث إليهم بكتب أخبرهم فيها بالمقصد الذي نرمي إليه ونحرضهم على قتل حمزة .

وفي اليوم التالي جاء حمزة إلى الإيوان ، فهش له كسرى وأحسن استقباله ، فسر حمزة ورأى الفرصة سانحة لأن يطلب من الملك الوفاءَ بوعده . فقال له :

— لقد وعدتني ياسيدي بالزواج من ابنتك مهردكار ..

لم يدعه كسرى يتم كلامه . بل ابتسم وقال له :

— إنى أعرف ذلك وقد عهدت بتدبير أمر الأفراح إلى الوزير بختك ، ويظهر أن هناك ما يمنع من الاستعجال .

وأكمل بختك قائلا :

— إننا لانزال مهتمين بهذا الأمر ، غير أن الزفاف يحتاج إلى أموال باهظة حتى يكون لائقاً ببنت ملك الملوك . وقد أمرنى سيدى أن أكتب إلى الولاة أستحثهم على إرسال الأموال المضروبة عليهم إذ مضى أكثر من سبع سنوات وهم ممتنعون عن أداء المطلوب وكتبنا إليهم وانتظرنا فلم يأتنا جواب من أحد ، وقد عرضت على سيدى أن يرسلك إليهم لتجنى منهم أموال السنين السبع وتُخْضعَ العاصى منهم ، فلم يوافق وطلب منى أن أدبر وسيلة أخرى . وإنى أطلب إليك بلسان الملك وأقسم عليك بحياة مهردكار وحرمة البيت الحرام أن تحفظ مملكة صهرك وعمك كسرى أنو شروان وتخضع له كل عاص فى المملكة .

لما سمع الأمير حمزة هذا الكلام أطرق إلى الأرض برهة ونار الغيظ تشتعل فى فؤاده وساد السكون المجلس ، والجميع ينتظرون جواب حمزة ، ثم رفع رأسه والتفت إلى الملك قائلا :

— اعلم ياسيدى أنى خلقت لهذه الدولة ؛ وأرى نفسى مضطرا إلى تنفيذ ما تأمرونى به ، وقد عزمت على أن أقصد تلك البلاد وأجمع لك الأموال والويل لمن يعصى أمرى ، ولا أريد منك إلا أن تفوضنى بأمر عام مختوم بختمك ليكون لى الحق أن أنوب عنكم فى ذلك .

الفصل السادس والعشرون

أصدر الأمير حمزة أمره إلى جميع رجاله بالركوب ، وركب معه معقل البهلوان وباقى الفرسان وساروا يخترقون السهول والجبال إلى أن وصلوا إلى مدينة حلب . فنزلوا فى خارجها حيث ضربوا خيامهم ، وكان القائم على حلب ملكا اسمه « نصير » وهو رجل عاقل يعبد الله، فلما وصلت إليه كتابة كسرى فكر فى موقفه وقال فى نفسه : لولم يكن حمزة مرهوب الجانب لما خافه الملك الأكبر وأبعده عنه بالحيلة وسعى فى هلاكه على يد غيره . ولهذا عوّل على أن يسالم حمزة ويصادقه .

وكتب حمزة إلى نصير يعرض عليه أمر كسرى ، ويطلب إليه دفع الأموال المتأخرة . فلما قرأ نصير كتاب حمزة جمع رجال دولته وعرض عليهم كتاب كسرى وكتاب حمزة وأفضى إليهم بما جال فى خاطره فاستحسنوه ووافقوا عليه، وخرجوا جميعا لمقابلة حمزة فى المكان الذى نزل به ، فرحب بهم وسلم عليهم . ثم قال الأمير حمزة :

— إعلم أيها الأمير أن الملك كسرى قد بعثنى لأجمع له الأموال المتأخرة لأنه فى حاجة إليها ، ولهذا أطلب منكم أن تجمعوا ما تجمّع عليكم من سبع سنوات وتدفعوه إلى فى أقرب وقت حتى نرحل إلى بلاد أخرى .

— نحن طوعُ أمرك ، ومن أجلك لا نخالف كسرى ، غير أن الحقيقة أن كسرى ليس له فى ذمتنا أى شىء وقد استوفى جميع المطلوب منا .

وأطلع نصير حمزة على كتاب كسرى ، وقال له إنه إنما أراد إبعادك وتعريضك للهلاك .

فقال حمزة :

— إنى أعلم ذلك ، ولكنى أجاريه وأصبر حتى يقتنع بخبث وزيره بختك ، وسترى بعد ذلك ما يسرك فيما يأتى من الزمان ، وتتخلص من دفع الأموال لعبدة النيران . وقد جئت لغاية معينة وهى جمع الأموال وحتى لا يكون هناك حجة يحتج بها بختك أو كسرى فإنى أريد أن تدفعوا لى عن سبع سنوات آتية وأعطيكم بما تدفعون إيصالا موقعا منى بتفويض من كسرى ، ولا يستطيع أحدٌ أن يطالبكم بعد ذلك بشىء .

— إكراما لك لا نمتنع عن ذلك ، ولكن نرجو الانتظار لمدة عشرين يوما .

وفى خلال هذه المدة كان الأمير حمزة ورجاله فى ضيافة الأمير نصير ورجال دولته ، وقد اختلطوا جميعا ، وانعقدت بينهم أواصر المودة والصداقة ، ولما تم جمع الأموال تسلمها الأمير حمزة وأمر بالرحيل .

وعندما وصلوا إلى القسطنطينية استقبلهم ملكها « اسطفانوس » على باب المدينة بالترحيب . ودخلوا معه المدينة بعد أن ترجلوا وتركوا خيولهم فى الخارج لأن شوارع المدينة مبلطة بالرخام الأبيض المنقوش بعروق سوداء على نسق

جميل ، والجدران مغطاة بألواح من خشب الجوز المدهون ، وبين كل لوح وآخر خط أصفر يلمع كالذهب ، فلما وصلوا إلى قصر الملك وجدوا بابه من النحاس الأصفر المنقوش وعليه رسوم وتماثيل عجيبة الصنع ، وعلى جانبي الباب أسدان من النحاس كل منهما بحجم الأسد الطبيعي وأعينهما متجهة إلى من ينظر إليهما ، ولما دخلوا وجدوا من العجائب مالم تَرَ عيونُهم من قبل وما أدهش عقولهم من التحف والتماثيل التي صنعها قدماء اليونان .

قال الأمير حمزة لأسطفانوس :

— اعلم أيها الملك العظيم أني لاأحب أن أبقى هنا طويلا لأننا نريد المسير إلى بلاد أخرى .

وطلب منه إحضار الأموال المطلوبة ، فجمع له مبلغاً كبيراً من المال ودفعه إليه بعد أن أطلع اسطفانوس حمزة على حقيقة كسرى ونواياه .

ثم رحل حمزةُ ورجاله إلى بلاد أخرى لقي فيها مالقي من المسالمة والإكرام في حلب والقسطنطينية . ولكنه لما وصل إلى بيروت وجد عليها حاكما اسمه كسروان ، وكان كسروان من الأبطال والفرسان الشداد ، ولما وصله كتاب كسرى استعد لملاقاة حمزة ورجاله .

ولما رأى حمزة كسروان يخرج إليه بجنوده سر بذلك وقال إن القتال في الحال خير من التطويل في الحصار .

والتقى الفريقان ، وازدحم الميدان بالفرسان ، ولعبت السيوف الصقال ،

والرماح الطوال ، فى مقاتل الرجال ، وقاتل العرب أشد قتال ، وفعل حمزة أفعالا تقصر عنها مردة الجان ، وعفاريت السيد سليمان ، وكذلك فعل معقل البهلوان ، والأمير عقيل والأصفران ، ولما حل المساء دقت طبول الانفصال ، وامتنع الفريقان عن القتال .

وكان حمزة يريد أن يلقى كسروان وجها لوجه ، فيبارزه ويقضى عليه ، ولكن كسروان أمر رجاله أن يحملوا على العرب دفعة واحدة وهو فى وسطهم .

وفى المساء قال حمزة لأخيه عمر الكشاف :

— إنى كلما حاولت أن التقى بكسروان وقت القتال غاب عن نظرى بين الجموع ، إنه فارس شديد وشيطان مريد ، ينتقل من مكان إلى مكان ، كأنه البرق فى اللمعان .

— عليك بالتبكير فى الغد قبل أن تستعد جموعه ، وهو يضطر أن يبرز إليك

وعند الفجر كان الأمير حمزة فى ساحة الميدان يطلب مبارزة كسروان ، فما سمعه هذا حتى نهض إليه وأطلق لجواده العنان ، وحمل على حمزة حملةَ جبَّارٍ عنيد ، فقابله بقلب أشد من الحديد ، واختلف بينهما الطعن والضرب ، ووقعا فى العناء والكرب ، ومازالا فى أشد قتال وأعظم نزال ، تارة يفترقان ، وتارة يجتمعان ، كأنهما أسدان ، أو جبلان حجبهما الغبار عن العيان ، حتى كان العصر وقد رأى حمزة شد كسروان ، فتعجب منه وشهد بأنه من الفرسان العظام . وكذلك كسروان ، رأى من حمزة فوق ما كان يظن ، وخاف أن يمضى النهار ولا ينال منه المرام ، لذلك صاح به وهجم عليه ، وبادره بضربة ظن أنها القاضية ، ضيعها حمزة

فى الهواء ، وجاوبه بضربة أشد من ضربته ، فوقعت فى صدره ، فألقته قتيلا .
وانتشر خبر موته وسرى الرعب فى قلوب قومه فتفرقوا فى كل مكان ، ورجع
حمزة ظافراً إلى الخيام وحوله أخوه عمر والثمانمائة الفارس الذين ولدوا معه فى
يوم واحد .

وجاء أعيان بيروت إلى الأمير حمزة، وقالوا له إن كسروان لاقى مايستحقه ،
وأنه ليس من أهل لبنان ، فهو أجنبى أغار إليهم منذ زمان وحكمهم بالظلم
والطغيان ، ففرح الأمير حمزة من هذا الكلام ، وحمد الله على أن وفقه فى قتل
كسروان ، واختار الأمير حمزة واحداً من أولئك الأعيان وأقامه حاكما على لبنان .

الفصل السابع والعشرون

سأل الأمير حمزة أخاه عمر :

— ماذا نقصد بعد ذلك، وإلى أين نتجه ؟

فقال له عمر الكشاف :

نتجه إلى مصر وندخل عاصمتها .

— من يحكم مصر ؟

— يحكمها ملكان عظيمان ، أحدهما « سكاما » والآخر « ورقا » وفيها عساكر كثيرة وأبطال عظام ، وهواؤها جيد مفيد للصحة .

— وأي إله يعبدون ؟

— هم مختلفو المذاهب ، بعضهم يعبد الأصنام ، وبعضهم يعبد النار ، وبعضهم يعبد العجل ، وبينهم أفراد يعبدون الله ويكرمون أنبياءه ، غير أنهم لا يقدرون على الجهر لقلتهم .

واتجه الجيش العربي بقيادة حمزة إلى مصر ، فمروا بالمدن الصغيرة والقرى ، لا يعتدون على سكانها ولا يؤذون أحداً ، بل كانوا على العكس ينفقون من الأموال الكثيرة التي جمعوها من مختلف البلاد . ولما أشرفوا على العاصمة ظهرت

لهم عالية البنيان متينة الأسوار ، وأقاموا خيامهم فى مكان خال قريب من المدينة . وكتب الأمير حمزةُ إلى حاكمى مصر « سكاما » و « ورقا » الكتاب الآتى :

« من فارس الحجاز حمزة العرب إلى سكاما وورقا حاكمى مصر .

لقد وصلنا إلى بلادكم ، ولابد أن تكون قد وصلت إليكم كتابة كسرى وشرح لكما ما شرحه لغيركما من الملوك الذين عرفوا الحق فاتبعوه ورأوا الباطل فخالفوه . فإن أتيتما إلى طائعين مخالفين لكسرى فإنكما تدفعان عن بلادكما شر الحروب ، وإذا دفعتما إلى الأموال المطلوبة عن سبع سنوات فإنى أعدكما ألا تدفعا بعد ذلك لكسرى أى شىء ، والسلام »

وبعث عمر الكشاف بهذا الكتاب ، وأوصاه بأن يأتى بالجواب من سكاما وورقا ، فسار عمر حتى وصل إلى دار الأحكام ، ودخل على الحاكمين ، وكانا قدعرفا وصول العرب ، وقبل ذلك وصلهما كتاب كسرى . ولما اطلعا على كتاب حمزة قالا لعمر :

— معاذ الله أن نحارب العرب أو نفعلَ غير ما يُرضى أميرهم حمزة ، وسندفع إليه الأموال المطلوبةَ ، فعد إليه وأخبره أننا سنكون عنده بعد قليل مع السادات والأعيان .

وعاد عمر إلى الأمير حمزة وكان جالسا معه الملك النعمان وكبار الفرسان ، فأبلغهم ماسمعه من سكاما وورقا ، وقال :

— هذا ماسمعته منهما ، ولكنى أحس أنهما يخفيان خلاف ما يظهران .

وبعد قليل جاء سكاما وورقا على رأس وفدمن الأعيان ، وسلموا على العرب وأظهروا لهم الوفاق والمسالمة ، وطلبوا من حمزة ورجاله أن ينزلوا عليهم ويدخلوا المدينة ليشاهدوا عجائبها ويتمتعوا بمناظرها ، فوعدهم الأمير حمزة بذلك فى اليوم التالى .

قال النعمان لحمزة :

— لقد حذرنا عمر من سكاما وورقا ، وإننى أخشى أن يكون وراء ترحيبهم تدبير للغدر بنا .

— لا أظن ، وإذا كانا يقصدان شراً فإن الله سبحانه وتعالى يقينا إياه .

واتفق الرأى على أن يبقى الجيش فى خيامه ويدخل حمزة ومعقل البهلوان ، حتى إذا حدث لهما حادث يمكن الجيش وبقية الفرسان أن ينقذوهما .

سأل سكاما وورقا عن بقية الرجال والفرسان لماذا لم يحضروا ، فأجاب حمزة بأنهم باقون فى المعسكر ولايمكن حضورهم جميعاً . فسكت الاثنان وفى نفسيهما غيظ . . كانا يريدان أن ينفذا خطتهما فى الجميع .

وقال سكاما لحمزة :

— ألا تحب أن تشاهدَ المدينة وترى القصور والقلاع ؟

— إنى أرغب فى ذلك فعلا ، وقد سمعت عن عجائب مصر وآثارها .

ونهض معه معقل البهلوان ، وسار معهما سكاما وورقا ، فاتجهوا أولا إلى النيل وتنزهوا على شاطئه ، ودخلوا الحياض والرياض التى تسقى منه ، ثم طافوا

بالقصور ، والأمير حمزة يتعجبُ من كل مايشاهد وخاصة مافى الأبنية من أعمدة رخامية طويلة ضخمة ، تبدو مع كبرها قطعة واحدة ، ودهش مما عليها من حفر ونقش عجيب . وعبروا النيل فى قارب أوصلهم إلى قلعة من الحجر الصوان وبابها من الحديد السميك المصقول ، فدخل حمزة ومعقل مدهوشين باتساعها وكثرة غرفها ودهاليزها . وانتهز سكاما وورقا فرصة انشغالهما بالمشاهدة والتأمل وأسرعا إلى الخارج . . . وأغلقا الباب عليهما .

انتبه حمزة ومعقل على صوت الباب ، ونظرا فلم يجدا سكاما وورقا ، وعرفا حقيقة المكيدة التى دبرها الخائنان ، وجعلا يبحثان عن مخرج يخرجان منه دون فائدة ، فلم يكن هناك أى منفذ للخارج سوى طاقات مرتفعة جدا عن الأرض. وكانت المشكلة الكبرى هى أن يحصلا على مايبقيهما على الحياة من ماء وطعام حتى يأذن الله لهما بالخلاص .

الفصل الثامن والعشرون

كان الشاب المصرى « اسمندار » الموكل على مراكب النيل من قبل سكاما وورقا — كان واقفا على شاطىء النيل عندما ذهب الأربعة فى القارب إلى الشاطىء الآخر حيث القلعة ، وشاهد سكاما وورقا عائدين وحدهما دون الضيفين العظيمين ، فارتاب فى الأمر ، ولا سيما أنه يعلم نيات الحاكمين الخبيثة ، وكان ساخطاً على ظلمهما للرعية وبطشهما بالمخلصين من أبناء البلاد الذين عارضوهما ، وطالما أرّقه التفكير فى طريق الخلاص منهما .

وكان لسكاما بنتٌ رائعةُ الحسن اسمها « درة الصدف » اعتادت أن تخرج فى الأمسيات الجميلة مع قهرمانتها العجوز للتنزه على شاطىء النيل ، فرأت اسمندار ، ورآها ، وأحبته وأحبها ، ومهدت لهما العجوز سبل اللقاء . وزاد همُّ اسمندار .. فشغله التفكير كذلك فى علاقته ببنت الملك الظالم وكيف يحصل عليها ، ولاسيما أن الملك ورقا يريد الزواج بها كما أخبرته ، وقالت له إنها تفضل الموت على الزواج بهذ الرجل الذى هو فى عمر أبيها .

قال اسمندار لدرة الصدف :

— ما رأيك فى أن نعمل على تخليص حمزة ومعقل من السجن ؟ وهما يخرجان وينضمان إلى قومهما ، ويخلصون البلاد من هذا الحكم الجائر ، وتزول العقبات التى تقف فى طريق حبنا وزواجنا .

— فكرة عظيمة يا حبيبى . . ولكن كيف الطريقة ؟

وسكتت قليلا ، ثم قالت :

— أمهلنى قليلا حتى أفكر فى الأمر .

— إنى سأوصل إليهما بعض الطعام والماء من النافذة الخلفية العالية عندما يتأخر الليل بحيث لايرانى أحد ، وعليك أنت أن تبحث عن مفتاح القلعة بأية طريقة .

— اتفقنا .

ذهبت درة الصدف إلى ورقا فى قصره ليلا ، وقالت له إنها علمت أنه فى كدر من الأحوال الحاضرة المضطربة ، فجاءت تسرى عنه ، ففرح بها أشد الفرح ، ثم قالت له :

— ألا تشرب قليلا من الخمر ؟

— أحسنت ، وإن كان وجودك معى يسكرنى من غير مدام .

وصبت له الكأس وقبلته فى لحيته ، وصارت تسكب ، وهو يشرب حتى غاب وعيه ، فقامت وفتشت فى جيوبه حتى وجدت مفتاح القلعة ، فأخذته وأسرعت عائدة . . .

مكث حمزة ومعقل فى سجنهما بالقلعة يومين ، قضيا اليوم الأول فى حزن وكدر ، وندما على حسن ظنهما بسكاما وورقا ، ولكن عندما تسلق اسمندار الجدار وصعد إلى النافذة الخلفية ، وألقى إليهما بالطعام والماء ، شعرا بالاطمئنان ،

وأ كلاوشربا ، وسَرَى إلى نفسيهما الأملُ فى الخلاص . وقد شكرا اسمندار على حسن صنيعه ، وقالا إنهما لابد أن يكافئاه على معروفه .

وفى مساء اليوم الثالث سمعا صرير المفتاح فى الباب ، فانتبها ، وتاقت نفساهما إلى معرفة القادم عليهما ... وأشرعا سيفيهما وتقدما من الباب . : وفتح الباب الضخم وإذا فتاة رشيقة رائعة الجمال تدخل عليهما .. قالت . .

— لا بأس عليكما .. اخرجا حالا والحقا بقومكما .

— من أنت ؟ وماذا دفعك إلى مساعدتنا ؟

— يكفى الآن أن تعلما أنى من قبل اسمندار الذى أتى إليكما بالطعام من النافذة .

— شكراً لكما ، ولكن أخبرينا ، ماذا حدث لقومنا ؟

— لقد اشتبكوا مع جيش سكاما وورقا فى معارك شديدة وقتلوا قائده « غيتشم » .

وبينما هم كذلك وإذا بباب القلعة يغلق عليهم بحركة سريعة أحدثت صريراً مفزعا . فصاحت درة الصدف وتهاوت إلى الأرض حزينة قلقة . . خافت أن يكون أحد من قبل أبيها أو ورقا يراقبها . . . وكذلك معقل البهلوان شمله الخوف والقلق ، أما الأمير حمزة فقد لاح له من خلال الباب وهو يغلق بسرعة شبح كعمر الكشاف ، ولهذا صاح به :

— افتح يا وجه القرد . . ليس هذا وقت الهزل . .

فارتد الأمن والطمأنينة إلى معقل وقال :

— من تقصد ؟

— إنه عمر . . لقد عرفته بحدسى قبل أن يراه بصرى . .

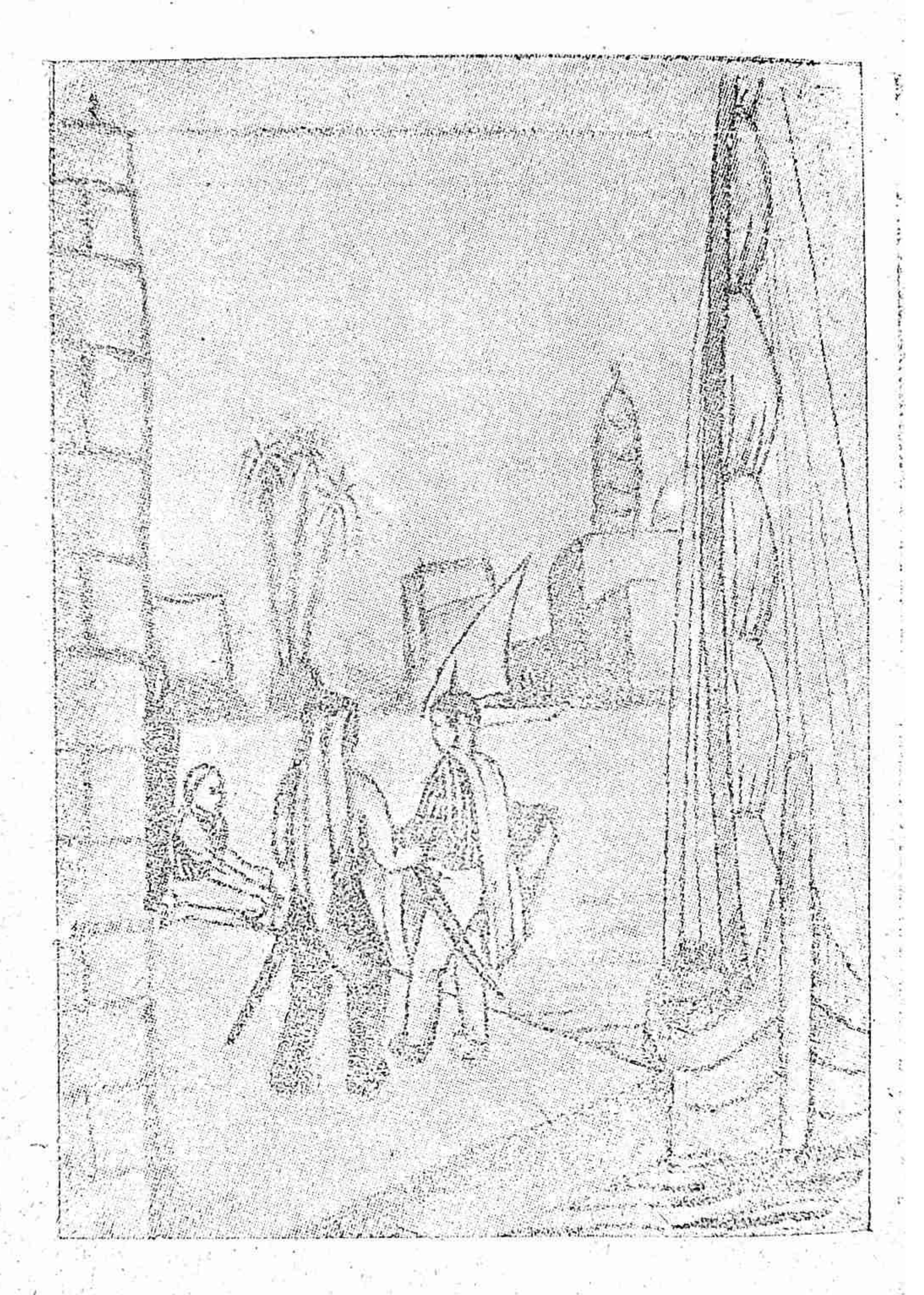
وفتح عمر الباب ، وعرفوا من ضحكه وحالة سروره أن العرب دخلوا المـــــدينة .

وكان اسمندار قد أحضر زورقا فركبوا إلى الضفة الثـانية ، وهناك قال الأمير حمزة لأسمندار :

— اترك عملك فى هذا المـكان وتعال معنا ، فأنت فى الغد ستكون ملـكا على هذه المدينة . ففرح اسمندار وسار معهم ، حتى وصل حمزة إلى قصر سكاما وورقا حيث فتش عنهما فلم يجدهما ، وعلم أنهما هربا ، فعاد إلى طرقات المدينه ، وأسرع إليه أهلها يطلبون الأمان ويبدون الطاعة . فأمر أخاه عمر أن ينطلق فى الأسواق وينادى العرب أن يكفوا عن أهل المدينة ويمتنعوا عن السلب والنهب .

وفى اليوم التالى توجه الامير حمزة إلى قصر الاحكام ومعه معقل البهلوان والملك النعمان وكبار العرب . وجاء كبراء المدينة وسلموا عليهم ، وناب عنهم فى الـكلام أحدهم فنهض وقال :

— أيها الأمير العظيمُ لقد وصلت إلينا أخبارُك وعرفنا صفاتك وعدلك وشجاعتك ، واعلم أن ما بدا من سكاما وورقا إنما يقع ذنبه عليهما ، أما الرعية فهى الآن مستريحة إلى ماحدث إذ تخلصت من ظلمهما وصارت تأمل فى العدل



والأمن والرخاء . وقد فوّضَ قومى إلى أن أدعوك إلى تولى مهام بلادنا وتكون مَلِكا علينا .

فشكرهم حمزة وطمأنهم على أنفسهم وأموالهم وقال :

— لا تخشوا بأسا ، فإننا ماجئنا هذه البلاد إلا لتحصيل الأموال المضروبة عليها لمدة سبع سنوات كغيرها من البلاد التى مررنا بها ، فامتنع حكامكم فلاقوا جزاءهم . وإنى أقيم عليكم حاكما منكم قد اخترته لما تبين لى إخلاصه وصلاحه ، وهو اسمندار وكيل مراكب النيل .

ثم طلب حمزة من أسمندار أن يسعى فى جمع الأموال المطلوبة عن سبع سنوات ، فأجاب طلبه وسعى فى جمعها وقدمها إليه .

الفصل التاسع والعشرون

أقام العرب فى مصر مدة توطدت فيها علاقتهم بالمصريين ، وخاصة بعد أن راق الحال فى مصر وعم الخير وساد العدل بين الجميع . وذات يوم كان حمزة جالسا فى خيمته على عادته إذ كان يرفض سكنى القصور وإذا برسول يدخل عليه ويقف بين يديه ويقول له :

— أنا يا سيدى من مدينة حلب من رجال أميرها نصير ، وقد بعثنى إليك لأخبرك أن كسرى لما وصلت إليه أخباركم فى البلاد التى مررتم بها وعلم باتفاق حكامها معكم ، أخذ يستعد لقتالكم حين رجوعكم إلى المدائن ، فجمع الجيوش حتى امتلأت بها السهولُ والمرتفعات حول المدينة .

فوجىء حمزة بهذا الخبر ، وسكت برهة ، ثم قال :

— هذا هو الذى أريدهُ ، وسوف يعلم كسرى هو ووزيره بختك من منا يكون الرابح ومن الخاسر وإنى واثق بالله وبأنه تعالى سيعيننى عليهم مهما جمعوا من العساكر والفرسان .

وأمر العرب بالرحيل . واتجهوا أولا إلى حلب . فاستقبلهم الأمير نصير بالترحيب ، وضربوا خيامهم فى ضواحى المدينة ، وأقاموا هناك عدة

أيام ريثما يستريحون ويعرفون المزيد من أخبار كسرى ، فقد أمر حمزة أخاه عمر الكشاف أن يذهب متخفيا إلى المدائن ليقف على حقيقة الحال هناك ويعرف أخبار الجيوش التى جمعها كسرى ، فأجاب عمر طلبه وتزيا بزى حجاب العجم وأخذ ما يحتاج إليه وانطلق من حلب فى خفة الرياح ، وسار عدة أيام وليال ، حتى بلغ المدائن ، فوجد الاستعداد للقتال قائما على قدم وساق ، وقد استطاع أن يصل إلى الوزير بزرجمهر ، فعرفه بنفسه ، وأفضى إليه بما جاء من أجله ، فقال له بزرجمهر :

— وأين أخوك ؟

— فى حلب ، وقد عاد منصوراً غانما أموالا غزيرة جداً ، وهو فى انتظار عودتى إليه لأطلعه على حقيقة أحوال كسرى وعساكره .

— إن أخبارَ أخيك وصلت إلى الملك كسرى ، وغاظت الوزير بختك العدو الأكبر للعرب . فأدخل فى عقله أن العرب بعد عودتهم لا بد أن ينزعوه من ملكه ويطردوه من بلاده . فأمر كسرى بجمع الجيوش ، وقرب إليه رجلا يدعى « زوبين الغدار » حاكم بلاد زوال وكوال ، وهو من أشد الفرسان فى هذا الزمان ، وولاه قيادة الجيوش ووعده بزواج ابنته مهردكار على شرط أن يقتل حمزة . . .

فقال عمر :

— لا بد أن يُلحقه أخى حمزة بالذين عاندوه ولقوا حتفهم على يديه .

ـ إنى أنصحكم ألا تدخلوا حروبا فى هذه الأيام ، بل أخبر حمزة أن يبقى فى حلب إلى أن تمضى أيام النحس ، فقد تبين لى أنها ستكون وبالا عليه .

عاد عمر ، وأبلغ حمزة ماسمعه من بزرجمهر ، وماشاهده من الجموع المحشودة للقتال ، فاضطربَ حمزة وكاد يطير صوابهُ من شدة الانفعال ودفعه الغيظ إلى الإصرار على الرحيل إلى المدائن برغم نصيحة بزرجمهر .

وفى خيمته خارج المدائن كتب حمزة إلى كسرى :

« من حمزة البهلوان فارس هذا الزمان ومذل الجبابرة والشجعان إلى الملك كسرى أنو شروان صاحب التخت والإيوانِ .

« اعلم أيها الملك الكبير أنى كنت قد أخلصتُ لك الودّ وخدمتك خدمة صادقة أمينة ، رجاء أن تسمح لى بينتك مهردكار ، وأنت تقابل حسناتى بالإساءة وتنقاد إلى وزيرك بختك الخبيث ، حتى بعثتنى إلى جمع الأموال من عمالك وولاتك ، وزعمت أن لك فى ذمتهم سبع سنوات متأخرة ، وفى الوقت نفسه بعثت إليهم برسائلك تطلب منهم قتلى والإيقاع بالعرب . ولكن الأمر جاء على خلاف ماتريد ، لأن الله الذى نعبده يحرسنا ويرعانا ، فجمعنا المطلوب عن سبع سنين سلفا بعد أن قهرنا كل من عصانا . وقد جئنا إلى هذه البلاد ومعنا من الفرسان كل جبار عنيد ، من فرساننا ومن انضم إلينا من فرسان البلاد التى مررنا بها ، ومعى من الأموال أحمال من الذهب والفضة غير الإبل والأغنام التى لا تعد . وأنا مستعد أن أسلم إليك كل هذه الأموال إذا أجبت

طلبی وزوجتنی مهردكار . أما إذا امتنعت وأبيت إلا أن تظل مخدوعا بكلام بختك فليس بيننا وبينكم إلا الحرب والقتال . وآخر ما أريدُ أن أقوله لك هو السلام » .

وما انتهى الوزير بزرجمهر من قراءة هذا الكتاب أمام كسرى حتى نهض بختك وهو يرعى ويزبد ويقول :

— هذه الوقاحةُ ليست غريبة على العرب . لأنهم قومٌ أجلاف إذا أكرِموا شمخوا . وهاك أيها الملك العظيم البرهان على صدق كلامى ، فقد جمع الأموال وطمع فيها .

ولم يكن كسرى بحاجة إلى مزيد من إيغار صدرِه على حمزة فقطع كلام بختك بقوله لعمر الكشاف الذى حمل الكتاب ووقف ينتظر الجواب :

— ارجع إلى حمزة وقل له إنه لا بناتَ عندنا لهُ ، فإذا سلمنا الأموال ورحل إلى بلاده عفوت عنه ، وإلا فإنى سأربطه بالحبال وأجازيه أشد مجازاة حتى يكون عبرة لغيره

وفرحت مهردكار بوصول الأمير حمزة ، ولكنها اغتمت بسوء العلاقة بينه وبين أبيها ، وصارت تود أن تصل إلى حمزة بأية طريقة وتعيش معه وتقاسمه الشقاء والهناء ، ومما زاد حزنها وقلقها وعد أبيها لزوبين الغدار أن يزوجه بها ، وقد رأته من النافذة فوجدته شنيع الخلقة كبير الرأس قصير القامة ضخم الساقين كبير الأنف أحول العينين . واستسلمت للصبر وما تأتى به المقادير .

وفى اليوم الثانى من وصول العرب إلى المدائن ركب الأمير حمزة جواده الأصفران ، وركب من حوله رجاله ، وضربت طبول الحرب من ناحية العرب ، حتى تجاوبت بأصدائها السهول والوديان وجاوبتها طبول العجم بأمر الملك كسرى ، وركب زوبين الغدار فى المقدمة .

واصطف الفريقان ، فى ناحيتى الميدان ، وآن أوان الحرب والطعان ، وصاح الأمير حمزة صيحة الأبطال ، وهجم هجوم الآساد ، وكذلك فعل باقى الرجال . والتحم العجم بالعرب . وهاج بحر المنايا واضطرب ، وما انقضى النهار إلا وقد شفى حمزة غليله وترك القتلى تلالا وآكاما وأوقع بجيش الأعاجم وأذاقهم كئوس الحمام .

ودارت الحرب فى اليوم التالى أشد هولا . وشاهد كسرى فرسان العرب يقاتلون ويقتحمون صفوف الفرس ويفرقونها فى كل ناحية كما تطارد البزاة أضعف العصافير . فقال لوزيره بختك وهو بجانبه :

— أى وزيرى ، إنى لست راضيا عن هـذه الحـالة التى كنت السبب فيها فقد ألقيت العداوة بينى وبين العرب مع أنهم كانوا طائعين وموالين لنا . .

— مهلا ياسيدى فإن الحرب لاتزال رهن الرجحـان ، ومن المؤكـد أن الفوز لنـا ، أنظر إلى صهرك زوبين . . كيف يقتحم الأهوال كأنه الأسد الهصور .

— إن مايفعله زوبين لا يذكر بجانب ما يصنعه فرسان العرب .

— اصبر ياسيدى ، فسترى لمن يكون النصر فى النهاية .

اتصل القتال بين العرب والأعاجم خمسة عشر يوماً ، كان عدد الفرس يتناقص فى خلالها يوما بعد يوم ، وظهر ضعفهم أمام العرب ، وثبت لكسرى أن الحرب إذا استمرت هكذا فستحل بهم الهزيمة لا محالة ، فدعا بختك وقال له وهو فى أشد حالات الغضب :

— لا برحت روح أبيك فى مغاور الثلج ، وغضبت عليها النار! فقد غششتنى وزيفت على الأمور حتى صرنا إلى هذه الحال ، فانظر فى أمر يخلصنا وينقذ شرفنا .

— عندى تدبير عظيم ، وسترى حمزة فى الغد مقتولا بسيف زوبين ، وحرمت النار على أرواح آبائى وأجدادى وبردتها الثلوج إذا لم يتم ذلك .

الفصل الثلاثون

دعا بختك زوبين وقال له : اتبعني . وذهب به إلى قصره وأخرج سيفا من صندوق حديدى قديم ، وأراه لزوبين وقال له :

— هذا السيف مسقى بسم الأفاعى إذا أصاب جسمَ إنسانٍ فلا شفاء له ، وإذا ضرب به الحديد براه ، فإذا استطعت أن تصل به إلى حمزةَ وتمكنت من ضربه فى أى جزء من جسمه سرى السُّم إلى كل بدنه ، ولن يمكث إلا بضع ساعات.

— عندى فكرة . ألبس ملابس العرب ، وعندما ينشب القتال فى الصباح أتسلل بينهم كواحد منهم وأقاتل معهم وأراقب حمزة حتى أتمكن منه بضربة من هذا السيف .

كان من عادة الأمير حمزة فى القتال أن ينتقل من مكان إلى مكان، يطعن صدور الأعداء ويراقب حال رجاله ليدفع عنهم ما يحيق بهم ، وعمر الكشاف من ورائه وبين يديه لا يتركه. وفى هذا اليوم تفقد معقل البهلوان فلم يره ، ولم يسمع له صوتا، فجال فى المعسكر يبحث عنه فلم يعثر عليه ، فانشغل باله واضطرب فكره وأمر عمر أن يذهب للبحث عنه . وبينما هو واقف على هذا الحال إذا زوبين الغدار يغتنم هذه الفرصة وينفذ إليه بضربة من السيف المسموم ، فجاءت الضربة على جبهته ، وشعر كأن أتونا قد اشتعل فى جسمه من رأسه إلى قدمه : فصاح من شدة الألم ، وانبطح على

ظهر الجواد، فعاد به ركضا إلى الخيام، فأسرع إليه الرجال من كل ناحية، وانتشر الخبر فى المعسكر ، وجاء عمر يجرى ووضع أخاه على سريره وربط له جرحه ، ودعا له « أسطون الحكيم » الذى جاء معهم من القسطنطينية ، فأخذ يضع المراهم ويسكن الجرح ، وحمزة يصيح ويتوجع من شدة الألم .

وفى المساء وبينما كان الرجال يحيطون بالأمير حمزة فى وجوم وقلق ، وإذا معقل البهلوان يقبل راكبا على فيل عظيم وخلفه على ظهر الفيل مهردكار !

كان معقل البهلوان قد فكر فى الحرب التى طالت ولا يعرف أحد متى تنتهى ، فكر فى طريقة تنهى هذه الحرب ، ووجد أن القتال فى هذه المرة قد نشب بسبب « مهردكار » بنت كسرى ، فحمزة يأبى إلا الحصول عليها ، وكسرى ومن خلفه بختك يمنعها عنه ، فرأى أن يأتى بمهردكار إلى الأمير حمزة ، ومادامت هى تحبه فستكون المهمة ميسرة، ويمكنهم بعد ذلك أن يرحلوا عن هذه البلاد ويعودوا إلى مكة :

انسل معقل من ساحة القتال ، ودار وراء جيوش الفرس وهم مشغولون بالحرب ، واقتحم باب المدينة وركض بفيله العظيم نحو قصر مهردكار وهو يصرع كل من يعترض طريقه . ورآها تطل من النافذة وتنظر إلى ساحة القتال بعين حزينة قلقة . فناداها :

— أى مهردكار ، قد نلنا النصر والفخار ، فاحفظى عرش أبيك وانزلى لنذهب إلى حمزة ، لكى يرحل العرب عن هذه الديار وينتهى هذا الدمار .

فما سمعت كلامه حتى أسرعت إلى جواهرها فحملتها ، وحملت ما استطاعت

من ثيابها وأسرعت إلى معقل ، وقفزت وراءه على ظهر الفيل . وكان قد خيم الظلام وارتدت هى برداء سابغ فلم يلحظها أحد .

لما رأت مهردكار ماحل بحبيبها الامير حمزة جزعت وبكت ، ولكنها ملكت نفسها وفكرت ثم قالت .

— لاشك عندى أن الجرح من سيف مسقى بالسم ولايعرف دواءه إلا بزرجمهر الوزير الحكيم .

وما سمع عمر الكشاف ذلك حتى أسرع بتغيير زيه ولبس ثيابا فارسية وغير ملامحه ، وركض حتى دخل على بزرجمهر وقص عليه ماحدث ، وكان بزرجمهر قد علم به فى مجلس كسرى حين جاء زوبين الغدار يزهو بفعلته ، وراح بختك يهنئه بالزواج الموعود من مهردكار ، فذهب إلى بيته حزينا . ولكنه الآن يحمد الله لمجىء عمر قبل فوات الأوان . أعطاه زجاجة الدواء وبين له كيفية استعماله وقال له :

قل لحمزة وفرسان العرب أن يرحلوا فى هذه الليلة ويقصدوا مكة المطهرة ، فالخير والتوفيق يأتيهم من هناك .

تقدم عمر من حمزة ، وسكب قليلا من الدواء على جرحه فزال الألم وانطفأ لهيبه ، ثم دفع عمر الزجاجة إلى مهردكار ووكل اليها علاجه والعناية به .

وأذن فى معسكر العرب بالرحيل ، وحمل حمزة فى هودج مريح وبجانبه مهردكار تعتنى به وتسهر على راحته . وحملوا كل مامعهم من الأموال والأنعام وساروا متجهين إلى مكة .

وعندما علم الفرس فى الصباح برحيل العرب سروا وفرحوا فقد كفاهم ذلك شر القتال ، وجعلوا يتحدثون فى أمر زفاف مهردكار إلى زوبين الغدار . ولكن فرحتهم لم تتم ، بل انقلبت إلى عواصف من الغم والأكدار لما انكشف أمر رحيل مهردكار مع العرب .

أرغى كسرى وأزبد ، وقام وقعد ، واضطرب الوزير بختك وأسقط فى يد زوبين الغدار ، وأرسلوا العيونَ وراء العرب لمعرفة اتجاههم وإلى أين يقصدون ، فسارت العيون من خلفهم حتى تأكد لهم أنهم يسيرون إلى مكة ، فعادوا وأخبروا كسرى بذلك .

وأمر كسرى بجمع الفرسان من كل مكان فى مملكته وإعداد جيش كبير العدد لغزو بلاد العرب .

الفصل الحادي والثلاثون

وصل العرب إلى مشارف مكة المطهرة ، وتنشقوا نسيم أرضها ، فانتشعت به أرواحُهم ، ولما وصَلت أخبارُ قدومِهم إلى الأمير ابراهيم أبى حمزة كاد يطير من الفرح ، وخرج لاستقبالهم ومعه كبار قومه. وسأل الوالد عن ولده فقيل له : إنه فى الهودج لأن به جرحا على وشك الالتئام والشفاء . فتكدر من ذلك ولكنه شكر الله على عودة ولده سالما ، وتفاءل خيراً بشفائه .

وأنزلوا الأمير حمزة ومهردكار فى بيت واحد وظلت تقوم على علاجه وهى موزعة المشاعر بين الحزن على ما أصابه والسرور بقربه ومقاسمته التوجع والألم .

وتقدم الأمير حمزة نحو الشفاء ، وشعر بالسعادةِ لقرب مهردكار ، ولكن ذلك لم يجعله يغفل عن الفرس وما يتوقعه منهم . ودعا أخاه عمر وقال له :

— إن العجم لابد أن يسيروا فى أثرنا إلى هذا المكان فلن يتركوا مهردكار والأموال التى فى أيدينا ، ولاريب أنهم يظنون أنى مت بضربة السيف المسموم. فأريد أن تحصنوا المدينة وتقيموا عليها الحرس وتبلغ جميع الفرسان أن يكونوا دائما على استعداد .

وقال حمزة لمهردكار وهو يدرك فى نفسه أنها لا بد تفكر فى أمر الزواج :

— اعلمى يا أعزّ الناس عندى أنك وحدك التى ملكت قلبى ، ولن أفارقك

مادمت حيا ، غير أن زواجى سيتأخر حتى أريح بالى من جهة أبيك، وإذا ساعدتنى العناية وراق لى الزمان جعلت يوم العرس من الأيام التى تضرب بها الأمثال .

وسكتت هى حياء وخجلا ثم قالت :

إن مجرد وجودى معك هو كل شىء بالنسبة لى . ولا أريد إلا أن أبقى إلى جانبك أشاهدك فى الصباح وفى المساء .

ولما جاءت الأخبار بأن جيوش الفرس قادمة إلى مكة وفى مقدمتها كسرى ووزراؤه وزوبين الغدار .. فرح حمزة وقال لرجاله :

— نريد أن تكون هذه المرةَ هى القاضيةُ عليهم .

فقال له عقيل أمير الثمانمائة الفارس الذين ولدوا مع حمزة فى يوم واحد :

— إننا لمثل هذا ، ونحن ننتظر هذه الفرصةَ وهى فرصة الدفاع عن بيت الله الحرام ، وسترى منا مايسرك .

وأمر كسرى بمحاصرة مكة ، ولما كان يعتقد أن حمزة قتل فقد كتب إلى العرب الكتاب التالى :

« من الملك كسرى ملك الفرس إلى النعمان ملك العربان ومن هم فى رفقته .

« بعد ذكر النار صاحبة الفعل والاقتدار . أقول لكم أنظروا فى أمر أنفسكم واختاروا لها السلامة وارجعوا إلى طاعتى ، وأعيدوا إلىّ ابنتى التى أخذتموها وهربتم بها غير حاسبين لعظمتى حسابا ، فإن لم تعيدوها إلىَّ معززة مكرمة وفى خدمتها أكبر أمرائكم مع الأموال التى جمعتموها من عمالى وولاتى ، زحفت عليكم

بهذا الجيش العظيم وخربت هذا البيت الذى تكرمونه وتعظمونه وتحجون إليه ..
والسلام »

ولما دخل رسول كسرى بهذا الكتاب على أمراء العرب وهم مجتمعون ، دهش الرسول عندما رأى حمزة ، ووقف مبهوتا ، إذ كان يظن أنه مات .

وقرأ النعمان الكتاب ، وسكت الجميع فقال حمزة للرسول :

— قل لسيدك — شفاهاً — أن لا جواب عندنا إلا الحرب ، وليعلم أن العرب أهل العزة والفخار ، وقد اعتادوا ركوبَ الأخطار ولن يعودوا إلى الطاعة بعد أن تسنى لهم أن يرفعوا عن كواهلهم نير كسرى وظلمه هو ووزيره بختك الخائن الغدار ، وقل له إن بلاد العرب لن تخضع بعد اليوم لأجنبى مهما كان .

ما إن تبلج نور الصباح وبرق من خلال الظلام حتى خرج العرب لملاقاة الفرس ، وركب الأمير حمزة جواده الأصفران وتقدم الصفوف ، ولبس عمر الكشاف ثوبا من الجلد الأسود قصير الكمين ضيقا يضغط على جسمه ويبدو كأنه جلده ، وتقدم بين يدى أخيه حمزة كأنه فرخ من فروخ الجان .

ولما سمع كسرى طبولَ العرب أمر أن تُضربَ طبولُ الفرس ، فأسرع فرسانهُم إلى خيولهم فألجموها واعتلوا ظهورها وتقدموا إلى ساحة الحرب ، وبينهم زوبين الغدار .

ولما التقت العين بالعين ، وتم نظام الفريقين ، صاح الأمير حمزة بصوت أشبه بالرعد القاصف :

— ويلكم يا أهل الخيانةِ والغدرِ ... هل ظننتم أن حمزة قد مات فتبعتم العرب إلى هذه الديار ؟ ألا تعلمون أن الغدر سيءُ العواقب لا يلجأ إليه إلا كل لئيم محتال يعجز عن القتال فى ساحة المجال ؟ هاقد جاءكم اليوم قضاء هذا الزمان ومذل الجبابرة وأهل الطغيان حمزه العرب .

وهمهم همهمة الأسود واقتحم صفوف الأعداء وهو يصول ويجول ويطعن فى الصدور، فيمدد الفرسان على الأرض بعضها بالطول والبعض بالعرض ، وحذا حذوه معقل البهلوان وسائر الفرسان . وما مضت ساعة من النهار ، حتى اضطرم لهيب النار ولحق شرورها الكبار والصغار وحل بالفرس الويل والدمار .

ودام الأمر على ذلك الحال إلى أن علت الشمس قشرة الاصفرار ، وسارت إلى الغرب تتطلب الاستتار ، فدقت طبول الانفصال وكف الفريقان عن القتال ، ورجع الأعاجم إلى الوراء وقد فقد منهم جم غفير وقتل قوم كثير .

وكان يصحب الفرس الامير «فرمز تاج» ابن الملك كسرى ، جاء مشتاقا إلى رؤية أخته مهردكار ، فلما رأى ما رأى فى ذلك النهار وما حل بقومه من الويل والدمار ، اشتعل فى قلبه لهيب الشوق إلى شقيقته وكاد ييأس من مشاهدتها طول حياته ، وانفرد بنفسه وجعل يشرب الخمر حتى سكر ، وزين له السكر أن يلبس ملابس البدو ، ويذهب بين العرب حتى يصل إلى أخته ، وخيل إليه أنها حين تراه تنهض إليه وتعود معه .

وكشف أمره عمرُ الكشافُ، فقبض عليه ودفعه إلى رجاله وأوصاهم بالمحافظة عليه، ثم ذهب إلى مهردكار وقال لها :

— إن أخاك فرمزتاج أصبح فى يدى فماذا تريدين أن أفعل به. فقالت مهردكار :

— دعنى ياعمر من أخى وأبى فأنى لا أعرف أهلا لى غيركم.

— ولكن ماذا تريدين أن نفعل به؟ هل نقتله أو نطلق سراحه؟

— أبقوه عندكم حتى ينظر الامير حمزة فى أمره.

• ولما كان صباح اليوم الثانى اصطف الصفان وتقابل الفريقان واشتبك الرجال بالرجال واشتد القتال وحمى النزال، وصاح الأمير حمزة وهجم وراح يطيح بالرؤوس تلو الرؤوس، وطاف معه عزرائيل يقبض الأرواح وحامت الطيور الكواسر ونزلت على أجسام القتلى لتشبع بطونها من لحومهم.

وشعر الفرس بشدة قتال العرب وأيقنوا أنهم سائرون إلى فنائهم ولا خلاص لهم من يد أعدائهم إلا بالفرار. ولما رأى كسرى أنوشروان ماحل بجيشه وشاهد العرب تبيد قسما كبيرا منه وتطارد الباقين إلى الوراء، انقلب الضياء فى عينيه ظلاما، وقال لبختك مؤنباً ساخطاً :

— روح أبيك تتقلب على جبال الثلج وتحرم الدنو من النار! فقد أهلكنا سوء تدبيرك، وهاهم أولاء رجالنا يتقهقرون وهم يرون الموت بأعينهم.

— هلم ياسيدى إلى الهرب، فإن اليوم ليس يومنا.

وكان فرسان العرب يدنون منهم فأسرعوا يركضون على خيولهم والعرب يتأثرونهم بالضرب فى أقفيتهم ، وبحث حمزة عن زوبين الغدار فلم يعثر له على أثر .

ورجع العرب بعد أن أهلكوا من جيش العجم نحو ثلثه وكانوا قد بعدوا عن مكة مسيرة ثلاث ساعات فى أعقاب المعتدين المهزومين. ولما قربوا من مكة خرج الأمير ابراهيم مع جمع كبير من أهل المدينة وبين أيديهم تضرب الدفوف وترتفع الأصوات بالأناشيد ، وقبل ابراهيم ولده وهنأه بالنصر والسلامة .

وأقيمت الولائم ووزعت الغنائم ، وفرقت الأموال على الفقراء والأيتام ، وباتت مكة تلك الليلة تضم فرسانها بين أحضانها قريرة العين بما حققوه لها من مجد وعزة وانتصار .

الفصل الثاني والثلاثون

نهض الأمير حمزة من فراشه نشيطا مستبشرا ، ودعا إليه أخاه عمر وأمره أن يحضر إليه فرمزتاج ، ودخل على مهردكار فوجدها جالسة فى انتظاره ، ولما قامت لاستقباله قبلها فى عينيها وقال لها :

— يصعب على ياقرة العين أن أخبرك بأن عساكر أبيك قد انكسرت وأنه سار مهزوماً ، ولابد أن يكون قد بلغك هذا الخبر .

— يكفينى أن أراك سالماً من نوائب الأيام ، وأما ما أصاب أبى فهو ما استحقه مع رجاله لأنه ترك الحقَّ وأعمى الباطلُ عينيه فمال إلى بختك وسمع منه وانقاد له وحمل نفسه ما لا يطاق ، وجر عساكره ورجاله إلى ساحة الوبال ، وانقلب عليك بعد أن وعدك الوعد الصادق بأن يزفنى إليك مكافأة لك على قتل عدوه خارتين وإرجاع بلاده إليه وقد كنت أميل إلى طاعته وأحرص على رضاه ، لولا أنه أراد أن يبيعنى لزوبين الغدار بتزويجى منه مكافأة له على الغدر بك ، هذا وإن أبى ليس على دين الحق ، لأنه كافر بالله هو وقومه ويعبدون النيران .

فنظر إليها حمزة نظرة المحب الواله وقال :

— إن لك عندى اليوم — يا أعز الناس عندى — مفاجأتين .

وهنا دخل عمر بفرمزتاج ، فنهض حمزة واقفاً وجعل يفك وثاقه بيده وهو يقول له :

— لم يهن على أيها الأمير العظيم أن تُذَلّ ويساءَ إليك وأنت ابن كسرى أنوشروان وأخو مهردكار ، ونحن العرب — وإن نكن قد اضطررنا إلى محاربتكم — لانزال نعرف قدركم ونطمع فى مودتكم ، ولو نظر أبوك إلى صالح نفسه وصالح بلاده ، لما عادانا بعد أن أخلصت له .

صافح فرمزتاج أخته ، وقال وهو فى منتهى السرور برؤيتها وبإكرام حمزة له :

— لعنت النار بختك ألف لعنة . فهو جرثومة الشر ، ولولاه لما كانت العداوة وهذه الحرب بل كان أبى بخير ونعمة وكنتم فى طاعته وصداقته .

ونظر الامير حمزة إلى مهردكار وقال لها مشيراً إلى أخيها :

— هذه هى المفاجأة الاولى ...

— وما الثانية ؟

سكت حمزة قليلا ، ثم قال لفرمزتاج :

— كنت أود أن أرسلك من هذه الساعة إلى المدائن باحتفال وتعظيم ، غير أنى أريد أن تشاركنا فى الاحتفال بزفاف أختك وتفرح معنا ، ثم تسير فتخبر أباك بذلك عساه يرجع عن السعى فى خرابه وهلاك قومه ، ويعلم زوبين الغدار أن أمله قد انقطع وأن التى يعلق آماله بزواجها قد تزوجها من هو أحق بها .

فشكره فرمزتاج وأبدى سروره بهذا الزواج ، وقال لأخته :

— لقد كنتِ على صواب فى حبك للأمير حمزة ، فهو رجل من أكرم الناس وأرقهم مع أنه من أشد الفرسان وأشجعهم ، وأنا منذ هذه الساعة أخاصم كلّ من يخاصمه وأحب كل من يحبه، وأعد نفسى سعيداً إذ أحضر زفافك إليه فى هذه البلاد.

وقال حمزة لقرمزتاج :

— إنى أعرف قدر العجم وملوكهم وأحترمهم مهما صنعوا معى، وأنا لم أكن البادىء بالشر ، وإنى حتى هذه الساعة إذا سالمنى أبوك ووزيره بختك سرت إليه بنفسى وقدمت إليه طاعتى وخدمته واعتبرت ما صدر عنه من معاداتى كأنه لم يكن .

ولم تكن مهردكار بعد ذلك بحاجة إلى أن تسأل عن المفاجأة الثانية فقد عرفتها ، وكانت مطرقة حياء وهى تناجى نفسها :

بشراك ياقلبى بشراك ... بعد قليل أصبح زوجة للأمير حمزة ؟

مطبعة
محمد عاطف وسيد طه وشركاهما
شارع كلوت بك عمارة الوطنية ت ٩٠٤٩٩٤

(٠٠٠ر٩٨ - ١٩٦٥م)